A.U.B. LIBRARY

CLOSED
AREA

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

956.92
K18f6A

فخر الدين المعني الثاني

امير لبنان

وعلاقته بفردناندو الاول وقزما الثاني

اميرَي تسكانا

١٦٠٥ — ١٦٢١

بقلم

الخوري بولس قرألي

مدير المجلة البطريركية

نشر برعاية

مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي

57708

بمطبعة القديس بولس — حريصا (لبنان)

١٩٣٨

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

حقوق النشر والترجمة محفوظة

تنبيه

لما كانت نصوص الوثائق الاوربية قد نشرت في الجزء الاول من هذا الكتاب رأينا ان نقتصر هنا على تلخيصها، وتعريب الاهم من فقراتها. اما الوثائق الشرقية، اي العربية والتركية، التي نشرت ترجمتها في الجزء الاول، فنثبتها هنا بنصها الكامل وبحرف اكبر تمييزًا لها عن سواها، ونلحق التركية منها بتعريبها(١)

الفصل الاول

فخر الدين وفرديناندو الاول

١ ـ **مشروع الحملة على قبرس** ـ كان فرديناندو الاول، غراندوق تسكانا، يحلم بكسر شوكة الاتراك وتخليص الاراضي المقدسة من أيديهم، واحتلال قبرس ودمشق، وما وراء ذلك من التوسع في النفوذ وفي المعاملات التجارية. فتقرب اليه المدعو رفائيل كاتشياماري(٢) البندقي. وكان، على ما يظهر من كلامه، قد زار لبنان وتعرف الى الامير فخر الدين، أو عرف الشيء الكثير عن بأسه وكرهه للاتراك ونزعته الاستقلالية، فاشار

---

(١) هذا الكراس يلي في موضوعه الكراس السابق المنشور تحت عنوان : فخر الدين المعني الثاني امير لبنان ـ ادارته وسياسته، ويؤلف القسم الاول من الوثائق المديشية الراجعة الى علاقات الامير بدولة تسكانا. وهذا ما حدانا الى وصل ارقامه بارقام صفحات الكراس السابق.

(٢) Cacciamari

على الغراندوق ان يحالفه ويستعين برأيه ومقدراته ومركز بلاده للوصول الى غرضه .

وبعد ان ادلى الى الغراندوق بمعلوماته مشافهةً قدم له، بناء على رغبته، تقريراً خطياً لا يحمل تاريخاً، مع ان لتاريخه اهمية في معرفة الزمان الذي بدأت فيه علاقات هذا العاهل بالامير . وهو، على ما نظن، الربع الاول من سنة ١٦٠٥ او قبيلها .

فقد اشار التقرير الى معركة تدور رحاها بين الامير وابن سيفا لاجل بيروت . ونحن نعلم من الدويهي ان هناك معركتين نشبتا بينهما في هذا السبيل . الاولى عند نهر الكلب في السنة ١٠٠٧ هـ [١]، التي تبدأ في ٤ آب ١٥٩٨؛ والثانية عند جونيه في السنة ١٠١٤[٢]، التي تبدأ في ١٩ آذار ١٦٠٥ . ونعلم من تقرير آخر وضعه المهندس سانتي ان « البابا اكليمنضوس الثامن كان مطلعاً على علاقات الغراندوق بالامير وموافقاً عليها »[٣]. والبابا المذكور جلس على الكرسي الرسولي في السنة ١٥٩٢ وتوفي في ٣٠ آذار ١٦٠٥ . ولما كانت حملة الغراندوق على قبرس في السنة ١٦٠٧ جاءت على الارجح بعد اطلاعه على تقرير كاتشياماري، رجح الظن ان المذكور يعني معركة جونيه التي وقعت في السنة ١٦٠٥، وانه وضع تقريره بعيد هذه المعركة . واذا كان هناك خطأ في التاريخ، الذي حدده الدويهي، فقبيلها .

واليك الآن زبدة هذا التقرير :

اولاً : مكانة فخر الدين . « الفرصة سانحة لضرب آل عثمان وثل عرشهم، والاستيلاء على مملكتي القدس وسوريه، لانهما غير محصنتين وحاميتيهما ضعيفتان . ولبلوغ هذا الهدف لا بدّ من التقرب من فخر الدين امير الدروز، المتحدّرين من الفرنسويين، والعاصين على الاتراك » .

« في وسع هذا الامير تجنيد اثني عشر الف مقاتل من حملة البنادق، المدرّبين على الحرب . واذا اجهد نفسه، تمكن من حشد عشرين الفاً . هو صاحب صيدا . ولهذه المدينة ميناء صالح لرسو المراكب ونزول جنود الحملة . وهو ايضاً صاحب بيروت،

---

(١) د ١٨٣

(٢) د ١٨٥ وز ١٢٢ ودم ١٩٤

(٣) ف ٢٠٥ و١٤٥ حاشية ٢

وبسببها تدور الآن معركة بينه وبين الامير يوسف سيفا، المنحاز الى جانب الاتراك، لا نعرف بعد نتيجتها . بيد ان الامر ليس بذي بال لان ميدان العراك خارج عن مملكته . واكبر الظن ان العدو لا يطيق الثبات طويلاً امام صدمات الدروز » .

« وتراني، يا صاحب السمو، على اتم الاستعداد لخدمتكم، وحمل امير الدروز على ايفاد سفير اليكم ليدعوكم الى الحملة . ومتى بلغتكم هذه الدعوة انفسح امامكم مجال الشروع في العمل . فتجهزوا الى الشرق عشرة آلاف من جنودكم لشد إزر الدروز في هذه الحملة . وفي وسعكم ايضاً تجنيد عشرين الفاً من اهالي جبل لبنان[1] المسيحيين، وتكليفهم التخريب في اراضي العدو . فيجتمع لديكم من جنودكم والدروز ونصارى الجبل بين الاربعين والخمسين الفاً . بهذه الطريقة السهلة، القليلة النفقة، تبلغون باذن الله مرامكم وتتوّجون ملكاً على القدس وسوريه .

« ومتى شاهد بقية الامراء المسيحيين نجاحكم هرولوا لشد إزركم والاقتداء بكم . فبعث البابا اليكم بالرجال . وهاجم ملك اسبانيا طرابلس الغرب، والبنادقة الارخبيل اليوناني ودلماسيا . وتشددت عزائم الامبراطور[2] في مناوأته الاتراك . فتتضعضع قواهم وتتلاشى . وان احجم الامراء المسيحيون عن مساعدتكم وعجزتم عن الاحتفاظ بالبلاد التي احتلتموها، اكتفيتم بتدميرها وحمل خيراتها وتسريح جنود الحملة .

ثانياً : طريقة الاتصال بالامير . « وللاتصال بامير الدروز، واكتساب صداقته ومحالفته طريقان : الاولى اجتذابه بالعطايا ووعده بقسم كبير من الغنيمة . والثانية تهديده، ان ابى الانصياع، بنزع ملكه، فيخاف وينقاد .

« في الحال الاول يجب ان تصحبوني برفيقين، احدهما يجيد العربية ليتفاهم مع الامير ويعقد معه سراً المعاهدة المرغوب فيها؛ والثاني يكون حاذقاً فنون الحرب ليستطلع بلاد الامير . واخفاء لغاية هذا الوفد الحقيقية على اهالي تلك البلاد وعلى جماعتنا ايضاً، فليسافر اعضاؤه كتجار، برأسمال معتبر لاكتساب الثقة، وليتظاهروا برغبتهم في فتح باب المتاجرة مع هذه البلدان .

---

(١) يعني جبة بشري لان هذا الاسم كان مختصاً بها

(٢) امبراطور النمسا

« ويحسن ان تكون هدايا الامير مؤلفة من عدّة حصان فاخرة، لجامها مرصع بالجواهر، على درعها وخوذتها نقوش بخيوط الذهب، مع دبوس وبضع طبنجات، وقونة ذهبية تحمل رسم معاليكم لها سلسلة من ذهب ايضاً . فضلاً عن بعض اقداح وفناجين من البلور وعشرة اثواب من الاقمشة الثمينة لحاشية الامير . وعلى المركب ان يقلع من هنا في شهر شباط ليتسنى له العود في حزيران، والّا صعب عليه الرجوع . وليكن محموله من الاجواخ والدمقس والقرمز والمخمل، ورأسماله كمية مهمة من النقود، تعود باذن الله بارباح لا تقل عن ثلاثين في المئة .

« ويشحن في العودة كمية من الرماد الصالح لصنع الصابون والزجاج يملأ بها عنبره . ويكمّل وسقه بمقادير من العفص والنيلة اللازمة للصباغة، والقرفة وجوز الطيب والبهارات وغيرها من اصناف العطارة المطلوبة هنا للمستشفيات والعطارين . فضلاً عن خيوط القطن والصوف الخشن، اللازم للفرشات والاثاث، والحرير البيروتي لنسيج الاقمشة الذهبية اللون، والطرابلسي الابيض لمصانع تسكانا ولُمبارديا .

« كل هذه البضائع تعود بارباح جيدة، تغطي نفقات البعثة وتفيض عنها . فلا تمسّ خزينتكم بنقص، لا سيما اذا كان الرأسمال النقدي كافياً .

« اما الطريقة الثانية لحمل الامير على الانضمام اليكم في هذه الحملة فهي ان تجهزوا اسطولكم لاحتلال جزيرة قبرس الخالية من الحامية ومن وسائل الدفاع الكافية[1] . . . وبعد احتلالها، وتثبيت قدمكم فيها، يوفَد الى امير الدروز سفير يدعوه بالحسنى للاشتراك في فتح دمشق . فان حاول التملص هُدّد باحتلال بلاده ونزع الملك عنه . واذا رآكم قد احتللتم الجزيرة بجيش قوي وتحصنتم بها فانا واثق انه لا يحجم عن قبول الدعوة، مندفعاً من كرهه للاتراك ومن خوفه على خراب بلاده وخروج الملك من يده؛ بل يشترك بارتياح في الحملة . لاسيما اذا ضمن البقاء في مملكته ونال الوعد بتوسيعها[2] .

ثالثاً : يوسف سيفا وجانبولاد . « الامير يوسف سيفا[3] هو صاحب طرابلس . يقطن

---

(١) وهنا يشرح خطته في احتلال الجزيرة، مما يخرج عن موضوعنا .

(٢) ف ١٣٣ – ١٣٨

(٣) هذا التقرير غير الاول، ونرجح انه لكاتشياماري نفسه

في عكار، التي تبعد عنها مسافة ستين ميلًا . له في طرابلس نائب وسبعمائة جندي، منهم مائتان يتناولون رواتب معيَّنة . في معيته ثلاثة ام اربعة من اولاده واربعمائة جندي من الدروز والموارنة يحافظون على حياته . يبلغ الستين من العمر . كبير انجاله في الثانية والعشرين، جميل الطلعة ومتزوج من بنت احد الامراء .

« في وسعه ان يجند ثلاثين الفاً من الرجالة المسلحين بالبنادق والسيوف العريضة النصال . يؤدي مالاً للسلطان يبلغ ستين الفاً، بين رسوم وعشور . وفي ما عدا ذلك لا علاقة له بالسلطان . فهو لا يرسل اليه وفوداً ولا اولاده . في معيته شيخ ماروني ذو حكمة وعقل وتدبير يستشيره في اعماله ومشاريعه[١] . تمتد سلطته الى حدود انطاكية ودمشق وغزه الخاضعة للسلطان . وهو صديق حميم لباشا غزه » .

رابعاً : الاتصال بفخر الدين . من الوثائق التي تلي نعرف ان الغراندوق اتصل بعد هذا التقرير بالامير ونال منه وعداً، « ان هو فاز باحتلال فاماغوستا[٢]، ان يساعده بقواته على احتلال بقية الجزيرة والاحتفاظ بها . لانه يعدّ جواره ضماناً كبيراً لنفسه[٣] » . فتشجع الغراندوق واوفد الى تلك الجهات اسطولًا ضخماً نازل مراراً العمارة العثمانية وتفوق عليها . وكان يجول في تلك البحار كسيدها . واصبح اسم فردناندو فيها مهاباً ومرعباً . فأمن الامير حليفه على سواحله وحول كل قواته البرية لقهر اعدائه . « وكان الاسطول التسكاني يلجأ الى موانئه ويتموّن منها . وامّل الغراندوق ان يتوصل يوماً، بمساعدة هذا الامير القدير الباسل، الى خضد شوكة الاتراك والقيام بفتح باهر يعود على النصرانية بالفائدة الجزيلة والراحة . وكان يمد الامير صديقه بالاعتدة الحربية ليتمكن من تسليح المتطوعين القاصدين اليه من كل حدب وصوب . وكان البابا اكليمنضوس الثامن مطلعاً على كل ذلك ومشجعاً له[٤] » .

---

(١) لعله يعني الشدياق يوسف ابا رعد المسمى خاطر، الذي اشترك مع المقدم مقلد بن الياس في مشيخة جبة بشري منذ سنة ١٥٧٤ . د ١٧٥ . وتوفي سنة ١٦١٢ . د ١٩٢

(٢) ميناء قبرس Famagosta

(٣) ف ١٤٥

(٤) ف ٢١٥

هذه الفقرة الاخيرة، كما سبق القول، تثبت ان علاقات الامير بالغراندوق سابقة لآخر اذار سنة ١٦٠٥، الذي توفي فيه هذا البابا .

واتسعت مرامي فردناندو الاول ومطامحه في الشرق الادنى، وبثّ العيون والارصاد في الانحاء التي كان يطمح اليها . فتلقى من احد وكلائه في الاستانة رسالة مؤرخة في ٢٩ ايلول من السنة ١٦٠٦، ينبئه فيها بتأهب السلطان لترأس حملة عظيمة على آسيا، تأديباً للعصاة . منهم « فخر الدين الذي انزل به خسائر كبيرة، وحشد من خمسة عشر الى عشرين الف محارب . واصبح في تلك الجهات ذا نفوذ كبير وسمعة طيبة »؛ ومنهم علي باشا جانبولاد، الذي شق عصا الطاعة على اثر مقتل عمه حسين باشا بيد جيغالا باشا . فاستولى على حلب، وهزم جيش يوسف باشا سيفا، الذي هرب بامواله الى قبرس . « ودخل جانبولاد طرابلس دون ان يسمح لجنوده بالتعدي على اهلها، فخرج منها مكتسباً محبتهم واحترامهم . اما العمارة العثمانية فقد عدلت الآن عن السفر الى طرابلس خوفاً من ان يصيبها سوء لكثرة الاعداء التي تجمعت على الدولة العثمانية[1] » .

٢ ـ **سفارة فريع** ـ هذه المعلومات التي تلقاها فردناندو الاول، وما بلغه عن تحفز العجم للثورة على الدولة العثمانية، شجعته على الاتصال بفخر الدين وجانبولاد وشاه العجم وشد ازرهم وتوحيد كلمتهم وقواهم عليها . وكان هذا الامير ـ وهو كردينال في رومية ـ اليد اليمنى لغريغوريوس الثالث عشر في مشاريعه الرامية الى العناية بالطوائف المسيحية الشرقية، الواقعة تحت ظلم الاتراك، والعمل على تخليصها من ايديهم واسترداد الاراضي المقدسة . وقد عينه البابا حامياً للشرقيين عامة، وللموارنة خاصة . فأسس في رومية المطبعة المديشية الشرقية، ونشر فيها في السنة ١٥٩٠ كتاب القداس الماروني بطبعة متقنة، مصوّرة، لم تجارِها جمالاً الطبعات الكثيرة التي توالت بعدها من هذا الكتاب . ولما توفي اخوه فرنسيس بلا عقب، ولم يكن بعد قد تقدّم الى الدرجات الكهنوتية، خلع الارجوان، وتولى مكانه عرش آبائه، مصمماً على تخصيص كل قواته البحرية لاضعاف الدولة العثمانية وتخليص المسيحيين من نيرها .

---

(١) ف ١٣٣ ـ ١٤٠

فعيّن المدعو باسيلي قريع[١]، الحلبي الاصل، سفيراً له وزوّده بالرسائل والتعليمات والهدايا الى فخر الدين والبطريرك الماروني وجانبولاد وشاه العجم .

اولاً : رسالته الى البطريرك الماروني .[٢] واليك الفقرة الخاصة بالبطريرك الماروني، نأخذها عن التعليمات السرية التي سلمها الى سفيره المذكور :

« البطريرك الماروني الساكن في دير العذراء[٣] في جبل لبنان كتب لنا عن حالة المسيحيين التعيسة في تلك الجهات . فنحملكم اليه الجواب المطوي هنا . حتى اذا سنحت لكم الفرصة بالمرور قريباً من ذاك المكان زوروه عنا . واجتهدوا في اكتساب صداقته، لانها لا شك نافعة في مشروع الارض المقدسة الذي نعدّه . وان لم يتسنّ لكم المرور، اوصلوا هذا الجواب اليه » :

واليك تعريبه :

« الى البطريرك الماروني في جبل لبنان ٢٥ كانون الثاني ١٦٠٧

« صاحب السيادة

« تلقيت بارتياح السلام الذي ضمنتموه رسالتكم الي . وتعزيت العزاء كله لما علمت ان ذكري ما زال باقياً في تلك الاماكن المقدسة . ولما كنتُ اقدّر ذلك حق قدره، جئت بهذه الاسطر شاكراً عليه سيادتكم شكراً جزيلاً، راجياً ان تثابروا على حسن الاستعداد، الذي ابديتموه نحوي، وان تضرعوا الى المولى لاجلي ولاجل المشاريع التي اعدّها، الرامية دائماً الى خدمة عظمته تعالى والنصرانية جمعاء . واذا عرّفتموني عما استطيع عمله هنا لراحتكم وانشراحكم وراحة المسيحيين الموجودين في جهاتكم، تأكدتم من استعدادي التام لخدمتكم ومن محبتي الخاصة لكم . وقد كلفت الفارس

---

(١) لعله من اسرة القريعية، التي حكمت وقتاً جبة بشري، وتخاصمت في السنة ١٥٧٤ مع الاهالي، فعزلها الامير منصور عسّاف بايعاز من الشيخ ابي منصور حبيش، كما اخبر الدويهي (د ١٧٤) فنزحت الى حلب، حيث انحاز بعض افرادها الى المذهب اليعقوبي

(٢) يوسف الرزي (١٥٩٧-١٦٠٨)

(٣) قنوبين

ميكالانجلو قريع[١] صديقي، العائد الى وطنه سوريه، بعض الخدمات، واوعزت اليه، اذا سنحت له الفرصة بالمرور قريباً من جبلكم المقدس، ان يزور سيادتكم عني ويؤكد لكم عن لساني استعدادي الطيب نحوكم . واني اطلب لكم من الله اعظم الخيرات .

خادم سيادتكم

ثانياً : رسالته الى فخر الدين . واليك تعريب كتابه الى فخر الدين :

« ايها السيد الكلي الشرف

« وفق الله سموك . املي انك ما زلت تذكر الرغبة الشديدة التي ابديتها سابقاً لافوز بصداقتك . تأكد اني ما زلت راغباً فيها ومقدراً اياها حق قدرها، لبسالتك وشرف نفسك .

« ولما كنت قد أوعزت الى حامل هذه الرسالة ان يقبّل يديك بدلاً مني وان يؤكد لك محبتي، ارجوك ان تقبله في حضرتك وتصغي اليه بارتياح وتثق بكلامه كأنه صادر مني . فاوصيك به خيراً واقدم لك نفسي للقيام بكل ما يمكنني ان اخدمك به .

ليڤورنو في ٢٢ كانون الثاني ١٦٠٧ مسيحية خادم سعادتك المحب[٢]

ثالثاً : رحلة قريع . وقد اصحب الغراندوق سفيره بمساعد فرنسوي يُدعى هيبوليت ليونسيني[٣] . كان بالاحرى مراقباً لاعماله . فقصدا الى قبرس، حيث اتفق قريع ومطران الروم على ان يثوروا على الاتراك حال وصول العمارة التسكانية الى ميناء فاماغوستا، ويطردوهم من الجزيرة . ثم استأنفا السفر الى طرابلس اللبنانية وقصدا منها الى حلب . فوجه ليونسيني من هذه المدينة في ٣١ ايار ١٦٠٧ الى كاتب اسرار الغراندوق رسالة طويلة يخبره فيها عن رحلتهما وعن مهمتهما، اليك تعريب ما يهمنا منها :

« سافرنا من الملّاحة في ١٧ آذار قاصدين طرابلس، حيث مكثنا ثلاثة عشر يوماً، كان في وسعنا ان نزور في اثنائها جبل لبنان المقدس، لاننا كنا على مسافة يوم واحد

---

(١) Michelangelo هكذا ورد اسمه في التقارير بيد انه يوقع « فصلي، اي باسيلي، ابن يُحنّا قوريع »

(٢) ف ١٤٠-١٤٢

(٣) Hippolyte Lionciny

منه[١] . بيد ان رفيقي لم يقبل بالرغم من الحاحي عليه، ومن زيارة الحاكم نفسه لنا، موفداً من لدن البطريرك بصحبة كاهن وطني . فاكتفى بتسليم رسالة الغراندوق . . .

« اما باشا حلب فقد زادت الآن نفقاته، لانه تزوج حديثاً بابنة الامير يوسف باشا طرابلس . . . وصلت الى هنا من زهاء شهر وجرى لها استقبال فخم . بيد ان الامير فخر الدين، باشا صيدا، الذي لم يكن بعد قد اصطلح مع الامير يوسف، ارسل يلوم علي باشا لاتحاده مع عدوه، وهدّده، ان هو رضي بارسال اختـه المخطوبة لابن الامير يوسف، أن يمنعها بالقوة . الامر الذي حمـل علي باشا على منع ابنة سيفا من دخول قصره، وان يأمر ان تنزل في بيت عمة لها في المدينة . واجاب الامير فخر الدين بأنه فاعل كل ما يطلبه منه، لانه يفضل صداقته على كل شيء في هذه الدنيا . وفي هذه الاثناء بلغنا خبر محاصرة فخر الدين لطرابلس ليقبض على الامير يوسف[٢] . بيد ان هذا الثعلب العجوز، لما احسّ بالخطر، هرب الى قلعة الفرنجي[٣]، البعيدة يومين عن طرابلس، وهي اجمل وامنع قلعة في املاك الدولة العثمانية . وبعـد ان شد الامير الحصار على طرابلس دون ان يقوى عليها ذهب لمحاصرة ذلك القصر، الذي انتزعه منه الامير يوسف في السنة الماضية . وما هي بضعة ايام حتى استولى عليه[٤] . غير ان الباشا بعث بالرسل الى هذا الامير والى ذاك، وعرف كيف يتدبر الامر بمبالغ دفعها اليهما، وما زال حتى استرضى كلا الاثنين[٥] . . .

٣ ـ **سفارة لبونسبي** ـ غير ان الحملة التسكانية على قبرس فشلت، لانها لم تكن كفوًا . فامتنع فخر الدين عن مساعدتها كي لا يجازف سدى . اما قريع فنجح

---

(١) يعني كما قلنا جبة بشري

(٢) هذا الحصار لم يكن معروفًا في تواريخ المعاصرين

(٣) قلعة الحصن

(٤) لا نعرف الى اي قصر يشير . لعله خلط بينه وبين قصر غزير، الذي استولى عليه الامير في السنة ١٥٩٨، ثم اعاده، ثم ضمه نهائيًا بعد معركة جونيه في السنة ١٦٠٥ (د ١٨٣ و ١٨٥)

(٥) ف ١٤٢ و ١٤٣

في مهمته وعقد في ٢ تشرين الاول ١٦٠٧ مع علي باشا جانبولاد معاهدة حربية تجارية، عاهده فيها الباشا على مناصرة الغراندوق في احتلال دمشق والقدس، ومنح رعاياه خاصة، والاوربيين عامة، ميّزات تجارية وحصانات مدنية شتى . فاعاد قريع رفيقه ليونسيني الى اوربا بنص المعاهدة ليعرضها على فردناندو الاول وبقية الامراء المسيحيين ويمهرها بتواقيعهم .

اولاً : مشروع المعاهدة مع فخر الدين . ولما وصل المذكور الى تسكانا سرت اشاعة انكسار علي باشا جانبولاد امام مراد باشا الصدر الاعظم، وهربه بخزنته وعشرين الف مقاتل الى جهات الاناضول . فأسرع الغراندوق في ارسال اسطوله بالاسلحة والمدافع لعله يساعد جانبولاد على النهوض من كبوته واستعادة منصبه . ولما سأل ليونسيني رأيه في ذلك حبذ الفكرة وأشار عليه ان يعيد الكرة على قبرس بما بقي لعلي باشا من القوات . وان امتنع، او عجز، فليطلب مساعدة فخر الدين . « فهو يحب المسيحيين لتحدره منهم، ويكره الاتراك » . فلا يتأخر عن شد ازره، لاسيما اذا وعده بما وعد به علي باشا من المساعدات الحربية والمكافئات المالية وما ينفسح له وراء ذلك من آمال التبسط في السلطة .

فامر الغراندوق ليونسيني بالعود الى الشرق، حيث سبقه الاسطول، والتداول مع قائده ومع قريع بما يجدر عمله . حتى اذا وجدوا علي باشا بحالة تسمح له بالنهوض ويرجى منها فائدة للنصرانية، سلموه الذخائر والاسلحة والمدافع وجعلوا الاسطول في خدمته . والّا فلا .

وزوّد الغراندوق سفيره تعليمات سرية اودعها غلافاً مقفلاً، وامره ان لا يفضه قبل اجتماعه بالقائد وبقريع . واليك ما جاء فيه بصدد فخر الدين :

« على كل حال فلا بدّ من ان تزوروا باسمنا حضرة الامير فخر الدين، وتقبلوا عنا يديه، وتؤكدوا له رغبتنا الصادقة في ان نراه يزداد يوماً عن يوم قوة وتبسطاً في الملك، واننا شديدو التعلق بصداقته ونعلل النفس بان يواصل مبادلتنا بها . وسلموه كتابنا هذا واشكروا له ما بلغنا عن استعداده، لو نجحنا في احتلال فاماغوستا، ان يساعدنا على التوسع في بقية الجزيرة وعلى تثبيت قدمنا فيها، لانه يعتبر جوارنا له في تلك الجزيرة خير ضمان لنفسه . الامر الذي كشف لنا عن كنه نياته الحسنة نحونا،

وحمّلنا الواجب في تقديم ما امكننا من المساعدات والخدمات لسموه . وشجعنا على التمسك بصداقته التمسك كله . واذا رأيتم ان جانبولاد باشا لا يُرجى له قيام، سلموا البنادق الى الامير فخر الدين . اما المدافع فلاداع لتسليمها اليه[1]».

ثانياً : الجلسة الاولى . ولما وصل الوفد الى قبرس تحقق من كسرة جانبولاد باشا وهربه وسمع اشاعة خضوعه للسلطان . فقرر الاتفاق مع فخر الدين، وقصد بالعمارة الى صور، وارسل قائدها يطلب من الامير رهائن، ليبعث اليه بالسفير . وفي اليوم التالي حضر الى العمارة قنصل صيدا الفرنسوي وبصحبته تاجر انكليزي يُدعى بروكس[2]، حمّلهما الامير تذكرة أمان بالعربية ليسلماها الى السفير . فاخبراهم ان فخر الدين قد اصطلح حديثاً مع الباب العالي، وارسل ولده الى الوزير في حلب بهدية قدرها ثلاثمائة الف قرش بين حرير ونقود، وثلاثة اسرى فلورنتيين . وانه لم يبعث اليهم برهائن خوفاً من اثارة الشبهات فيه، لان حوله جواسيس كثيرون، والوزير ما زال مقيماً في حلب .

فلم يكتفِ القائد بالتذكرة المذكورة . بل استكتب ليونسيني كتاباً الى الامير يشير فيه الى خطورة المهمة المنتدب لها . ويلح في ارسال الرهائن . فتلقى القائد جواباً من الامير يدعوه الى الرسو في ميناء صيدا بمركبين ام ثلاثة فقط، ويعده بارسال الرهائن الى هناك . ويؤكد له انه شديد الرغبة في التحدث اليه والى سفير الغراندوق . فقصدت العمارة التسكانية الى صيدا وارمت مراسيها على مسافة ميلين من مينائها . واذا بقارب فيه بروكس المذكور وقيّم قصر الامير مع خادمين كرهائن .

فنزل السفير ليونسيني مع ترجمانه الى صيدا وباتا في بيت القنصل الفرنسوي . وصباح اليوم التالي قصدا بصحبته وصحبة القنصل الانكليزي وبروكس المذكور الى قصر الامير في هذه المدينة . ولما دخلوا عليه استقبلهم دون ان ينهض من مكانه وامر السفير بالجلوس وباطلاعه على مهمته . ولما تسلّم الامير رسالة الغراندوق ناولها بدوره الى القنصل الفرنسوي ليقرأها . وكان قد اتفق مع السفير على ان يقتصر الحديث في تلك الجلسة العلنية على استفكاك أسرى وقعوا حديثاً في قبضة المراكب التسكانية،

---

(١) ف ١٦٣ – ١٦٥

(٢) Brocches

ليبقى سر السفارة مكتوماً . فقرأ القنصل الكتاب خلافاً لفحواه، ونقدهم الامير ثلاثة آلاف ريال ثمناً للاسرى . فرجاه السفير ان يتوسط لدى الوزير باعادة الاسرى الفلورنتيين . فوعده بأن يكتب اليه بهذا الشأن وامره ان يعود اليه في اليوم الثاني لتسلم كتاب التوصية . ثم صرفهم فعادوا الى دار القنصلية الفرنسوية .

ثالثاً : الجلسة الثانية . وفي اليوم الثاني ارسل الامير احد حجّابه يستدعيهم اليه . فعادوا الى القصر بصحبة القنصل الفرنسوي . ولما دخلوا القاعة وجدوه ينتظرهم وحده . وبعد ان أمرهم بالجلوس اخرج من جيبه كتاب الغراندوق ودفعه الى قنصل فرنسا فقرأه . وكان ترجمان السفير ينقل الى الامير بالتركية العبارة تلو العبارة . حتى اذا انتهى منه بدت على وجه الامير امارات الارتياح الى مضمونه وامر السفير ان يسرد عليه كل ما امره الغراندوق بتبليغه . فقال : ان سيدي لما علم بفشل جانبولاد باشا رأى ان يعهد الى سعادتك شرف المهمة التي باشرها مع المذكور . لانه عالم انه لا يجد في الشرق اميراً سواك يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة واتمامها . ولذلك يرجوك ان تصرح له بما يلزمك من المساعدات لبلوغ هذه الامنية . وقد ارسل اليك الان الف قصبة للبنادق عربوناً لصداقته المخلصة المتينة، واسطولاً من المراكب الحربية لتستخدمه عند الحاجة ضد الدولة العثمانية .

فاجاب الامير شاكراً لسموه الشرف الذي خوّله اياه . واخبره ان جانبولاد باشا كتب اليه مرة عن هذا المشروع . ولم يعرف بعدئذ ما تم به . وهو يشك في استسلام المذكور للسلطان لانه يخاطر بحياته لو فعل . واردف بقوله : ان جيشي اقوى من جيشه، وان قلّ عنه عدداً، وبلادي امنع كثيراً من بلاده، لانها ذات مركز حربي ممتاز . ولدي قلعتان لو سلّحنا كلًّا منهما بعشر قطع من المدفعية ام اثنتي عشرة، لا تقوى كل جيوش آل عثمان عليهما . الواحدة تبعد عن البحر مسافة يوم ونصف يوم؛ والثانية يومين، بيد انها قريبة من اورشليم . وفي وسعي الاستيلاء بسهولة على الاراضي المقدسة . غير اني احتاج الى مساعدة للاحتفاظ بها .

فاجاب السفير : ان مولاي والبابا وملك اسبانيا مستعدون لتقديم ما تطلبه من المساعدات، مهما كان نوعها .

فنهض قنصل فرنسا وجاهر بقوله : ومولاي ايضاً مستعد لشد ازر سعادتك عند الحاجة .

وعندئذ ابرز السفير امام الامير براءة البابا الى شاه العجم، وسأله ان يسهّل عليه طريق الوصول الى تلك الاصقاع . لان الغراندوق راغب في ان يشرك هذا الملك في المشروع ويوحّد قواهما على الدولة العثمانية .

٤ ـ **المعاهدة**[1] ـ فتلقى الامير هذا القول بشيء من الفتور، كأنه لم يرق له . وجاهر انه قادر على القيام وحده بهذا المشروع على شرط ان يقدم له الغراندوق والبابا وملك اسبانيا المساعدات اللازمة .

اولاً : الشروط . ولما الح عليه السفير بان يصرح عن المساعدات اللازمة له في الوقت الحاضر استحضر قلماً ودواة وأملى عليه ما يلي :

اولاً : ان يوضع تحت تصرفه خبير في صب المدافع مع المواد الضرورية، ليصب له عشر قطع من المدفعية، ام اثنتي عشرة، وكمية تناسبها من القنابل .

ثانياً : ان تُبذل الجهود لاستفكاك الفلورنتيين الثلاثة، لانهم عارفون تمام المعرفة بقلعتيه المذكورتين .

ثالثاً : لما كان العمل الذي ينوي الاقدام عليه من الخطورة بمكان، كاحتلال القدس ودمشق وغيرهما من مدن سوريه، فهو يطلب الى البابا ان يبعث اليه ببراءة يأمر فيها جميع المسيحيين الخاضعين له، تحت قصاص الحرم، بان يتسلحوا ويهبّوا لمساعدته عند صدور اول اشارة منه . فيحارب في جنبه، ليس رعاياه اللبنانيون فحسب، بل كل مسيحي في الشرق؛ ليصبح نجاح المشروع مضموناً .

رابعاً : ان يصدر الغراندوق أمره الى كل المراكب التسكانية القاصدة الى الشرق بان ترسو في ميناء صيدا، حتى اذا كان بحاجة الى تحميلها رسائل او خزنته، او غير ذلك، استخدمها .

---

(١) لا تاريخ لنص هذه المعاهدة ولما كانت المعاهدة مع جانبولاد باشا وقعت في ٣ تشرين الثاني ١٦٠٧ (رص ١٦٨) ومضت بضعة اشهر بينها وبين هذه فنرجح انها جرت في ربيع ١٦٠٨

خامساً : ان يزوّده الغراندوق بتذكرة مرور يسافر بها، اذا اضطره الامر، الى ايطاليا، سواء كان لمشافهته، او لغرض آخر قد يطرق عليه . فيتسنى له السفر ذهاباً واياباً بدون مانع لشخصه او لاحماله او للسفن التي يركبها .

سادساً : ان يهدي اليه ثلاثة ام اربعة هواوين ودرعاً من اجمل الدروع .

ولما انتهى الامير من بسط هـذه المطالب أوعز الى السفير ان يكتب له جواباً للغراندوق، ليمهره بامضائه وختمه . لان ليس حولـه من يعرف الافرنجية، او يثق به لهـذا الغرض . واخبرهم ان نائب ملك اسبانيا في نابولي اهدى اليه قطعتين من المدفعية وكمية من البنادق واشياء أخر . ورغب الى الترجمان ان يكتب باسمـه كتاباً يشكر فيه النائب المذكور . فلبى الترجمان طلبه . ومهر الامير الكتاب بامضائه وختمه، وكلف السفير ايصاله بطريق مأمونة . وصرفهم بعد ان امرهم ان يرجعوا اليه بالرسالة التي اوصاهم بكتابتها .

فكتب ليونسيني الرسالة، بيد انه اطلع عليها القنصل الانكليزي والتاجر بروكس، وسمح لكل منهما باستنساخها، مما حمل الترجمان على لومه لفضح اسرار هذه المحالفة الخطيرة بين اميرين كبيرين . لان الانكليزيّين لم يطلبا استنساخها الا لغرض في النفس .

ولا يبعد ان يكون الرّحالة ساندیس، الذي زار لبنان بعد سنتين، قد اطلع من بروكس المذكور على فحوى هذه المحالفة وكتب عنها، لانه استقى كلامه من « بعض التجار، الذين كان لهم علاقة بهذا المشروع[1] » .

ثانياً : الجلسة الاخيرة . وعادوا الى الامير للمرة الثالثة ؛ وسلمه السفير الرسالة التي كتبها باسمه الى الغراندوق فوقّعها وسجّلها بخاتمه . ورغب اليه ان يعيد على مسمعه ما قاله أمس عن مهمته لان الاعادة تسره . فاعاده . فعاهدهم الامير على ان يكون صديقاً مخلصاً لمولاهم، وان يخدم افكاره ومراميه ومساعيه . ثم سألهم اذا كان هناك قرابة بين الغراندوق وملك اسبانيا . ولما اجابوه على سؤاله افادهم ان ملك اسبانيا عرض عليه ان يبني حصناً في ميناء صور . فلم يلبّ حتى الان طلبه ويريد ان يعرف رأيهم

---

(١) ساندیس ص ٢١٣

في هذا الامر . فاوعز السفير الى الترجمان ان يخبره عن هذا الملك انه اذا وضع قدمه في بلاد لا يسع صاحبه اخراجه منها ، بل بالاحرى يطرد الاصيل منها . فلم يرَ الترجمان هذا الكلام لائقاً فاجاب « ان فطنتك السامية ، ياسعادة الامير ، تغنيك عن استشارتنا في هذا الامر » . ثم اردف الامير بقوله : ان الملك المذكور عرض عليه من القوات العدد الذي يريده .

ومن حديثه معهم قوله : « اني آسف لفشل حملة الغراندوق على قبرس ، لاني اعدّ جوار هذا الصديق شرفاً وفائدة ارتاح اليهما الارتياح كله » . فسأله السفير أكان مستعدًّا للاشتراك في تلك الحملة . فاجاب : كنتُ مستعدًّا لتقديم ما تحتاج اليه من المؤن . اما جيشي فلا يسعني ان اشطره .

ثم سألهم عن الحرب المستعرة بين البابا ودولة البندقية . فاخبروه انها انتهت بصلح مبتور ؛ لان الطرفين غير راضيين عن بعضهما الرضى كله . فسألهم اذا كان في نية البنادقة استعادة جزيرة قبرس . فاجابوه : لا ينتظر ذلك منهم ؛ لانهم عقدوا الصلح مع الدولة العثمانية ، ثم ان قسماً من املاكهم واقع في منطقة آل عثمان ، وبعضها متاخم لها . فجاهر انه مصمم النية على مناوأة الاتراك ما دام فيه عرق ينبض .

فقال له السفير : يشتهي الغراندوق ان يراك يوماً ملكاً على سوريه ، كاسراً شوكة الامبراطورية العثمانية . واكد له ان رغبة الامراء المسيحيين في استرجاع الاراضي المقدسة غير ناجمة عن طمع في التوسع ، بل جلّ مرامهم ان يسهلوا على الحجاج المسيحيين زيارة الاماكن المقدسة . وان في نية الغراندوق والبابا ان يعينا له ، اذا نجح ، مبلغاً من المال يتقاضاه سنوياً بدلاً من الرسوم والمضايقات التي يتحملها الان هؤلاء الحجاج . فاظهر الامير ارتياحه الى هذا التدبير ، واستعداده التام للقيام بالمشروع المعروض عليه . واردف بقوله : « اذا انقلب عليَّ الدهر فقهرني الاتراك لجأت الى بلاد الغراندوق لاقضي فيها بقية حياتي[1] . اما الان فحالما اعلم بخروج الوزير من حلب اركب على الامير يوسف باشا طرابلس » .

---

(١) ان فكرة اللجوء الى تسكانا جاءت نتيجة ضرورية لهذه المحالفة ، لان الامير كان عالماً انه بهذه المحالفة يجازف بملكه وحياته

قال هذا وصرفهم مبدياً اسفه لعجزه عن اهداء الغراندوق شيئاً في الوقت الحاضر، لان ليس لديه ما يليق بمقامه الرفيع. بيد انه لا يتملص من هذا الواجب حالما تسنح الفرصة.

ولما بلغوا دار القنصلية لحقهم خادم الامير بثلاث خلع، الواحدة لقائد الاسطول والثانية للسفير والثالثة للترجمان. فرجعوا الى المركب واعاد القائد رهائن الامير وحمّلهم اليه بعض التحف وكلفهم ان يقبلوا يديه عنه ويخبروه انه، قبل الاقلاع من صيدا، سيطلق مدفعاً علامة الاستئذان في السفر. ثم ينتظر قليلاً لعل الامير يأمره بخدمة ما[1].

ثالثاً : رسالة بيوس الخامس الى الامير. ولما وصلت البعثة الى تسكانا قدم الترجمان للغراندوق، خلاف هذا التقرير، شكوى على السفير، اتهمه فيها بافشاء سر المحالفة في كل الثغور التي مروا بها ذهاباً واياباً، للفرنسويين والانكليز والاسبان، حتى ان البحّارة انفسهم كانوا عارفين بهذا السر.

وفي السنة نفسها ١٦٠٨، بعد رجوع السفير، بلغ الغراندوق من احد مراسليه السريين في الشرق « ان الامير نشط حالاً للعمل وجمع ثلاثين الف مقاتل »، مستخدماً اعطوله التسكاني في نقلهم وتموينهم؛ مما اثار شبهات الباب العالي في سلوكه، وجعله يتحفز لمعاقبته.

ومما زاد الامير اقداماً على العمل رسالة كتبها اليه البابا بولس الخامس، هاك تعريبها عن اللاتينية :

« الى فخر الدين امير الدروز ونيقوميديه وفلسطين وفنيقيه »

« سلام ايها الرجل الشريف. وليحلّ عليك نور النعمة الالهية.

« عرّفنا الاخ المحترم سركيس، رئيس اساقفة دمشق الماروني[2]، الذي أمّ رومية لزيارة ضريحي الرسولين القديسين، عطفك العظيم على اولادنا المسيحيين، وخاصة الموارنة. فبتنا مدينين لك كثيراً، لان ما تفعله نحو اولادنا تفعله نحونا. ولما كان رئيس الاساقفة

---

(١) ف ١٤٦ ـ ١٥٣

(٢) المطران سركيس الرزي شقيق البطريرك يوسف. دخل رومية في ٧ تشرين الثاني ١٦٠٧ ر ص ٣٧ حاشية ٥

المذكور عائداً الى اخوته، رأينا ان نكتب اليك هذه الرسالة دليلًا على محبتنا لك . واوعزنا اليه ان يبلغك انتظارنا بكل الجوارح الفرصة التي تتيح لنا ان نثبت لك عظم هذه المحبة، وشدة ارتياحنا الى حسناتك نحو اولادنا المسيحيين . وقد امرنا رئيس الاساقفة المذكور ان يسلمك بعض التحف، املًا ان تحوز لديك قبولاً، وإن صغيرة؛ لانها دليل على ميلنا الخاص اليك . ونحثك ثانياً وثالثاً ان تواصل رعايتك لاولادنا، خاصة الموارنة، وان تشمل بحمايتك حامل هذه الرسالة . وهو يفصح لك عن رغبتنا الشديدة في مناصرتك على الاتراك الظلمة، اعداء الطرفين . حتى اذا توسعتَ في تخليص هذه الاماكن من نيرهم القاسي، عاد سكانها الى الدين القويم، مجدًا لله وخلاصاً للنفوس . ليضئ الاله قلبك برحمته ويسدد في طريق الحق خطواتك .

« اعطي في رومية بقرب مار بطرس في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩ . وهي السنة الرابعة لحبريتنا » .

وحمّل البابا ايضاً المطران سركيس كتباً خاصة الى كل من الياس الرزي والشدياق فرج ويونس حبيش ويوسف خاطر، مقدمي الموارنة[1] .

---

(١) ف ١٥٣ - ١٥٥ لدينا صور هذه الرسائل سننشرها في اول فرصة

الفصل الثاني

التجاء فخر الدين الى قزما الثاني

١ ـ **بين فخر الدين وقزما الثاني** ـ توفي فرديناندو الاول في السابع من شباط ١٦٠٩، موصياً ولده قزما الثاني ان يواصل سياسته الشرقية .

اولاً : الامير يحيى . وفي صيف تلك السنة لجأ الى الغراندوق الامير يحيى العثماني، شقيق السلطان احمد، وصاحب الحق في العرش . وكانت والدته من سلالة امراء قبرس المسيحيين، فتنصر سراً باسم فرنسيس ونال وعداً من قزما الثاني بمساعدته على استخلاص العرش من اخيه الاصغر . وكان الغراندوق يحلم، ان هو فاز باجلاسه على عرش الاستانة، ان يسهّل تحويل الامبراطورية العثمانية الى دولة مسيحية . فتزول المشاكل القائمة بينها وبين الدول الاوربية، وتعود النصرانية في الشرق الى ازدهارها .

فاوفده باسطوله الى الشرق ليجمع كلمة العصاة على السلطان، كالامير فخر الدين ومصطفى حسين وابن القلندر وغيرهم . وكتب قزما الثاني الى فخر الدين في ٢٢ ايلول ١٦٠٩، يحثه على الاخذ بناصر الامير العثماني . ومما قاله : « لما كان والدي السعيد الذكر عالماً بمكانتك الكبيرة واعمالك المجيدة، الذائعة الصيت بين الامراء المسيحيين، حفظ لسعادتك محبة خالصة واحتراماً خاصاً، وسعى وراء صداقتك، كما خبرتَ ذلك بنفسك . وقد امرني في وصيته ان اواصلك بهذه الصداقة العزيزة لدي، ليس من باب الوصية فحسب، بل لميلي الخاص الى شخصك . وهذا ما حملني على ان اخصص لخدمتك ما بوسعي تخصيصه، لاسيما قواتي البحرية . ولما كنتُ واثقاً من شهامتك وصونك للعهود كلفت قائد اسطولي ان يطلعك على مشروع خطير اسعى اليه الان . فان انضممتَ اليه وزوّدته بآرائك الصائبة، حزت فخراً عظيماً امام العالم، وفزت من ورائه بنتائج باهرة لمستقبلك ومستقبل دولتك، وهانت عليك المجازفة في سبيله بمنصبك وبلادك وحياتك » .

وكان الحاج كيوان في طريقه الى الاستانة بمهمة كلفه الامير قضاءها . فالتقى بالاسطول التسكاني وقصد اليه لتقبيل يدي الامير يحيى . ولما اطلع منه على غاية رحلته اشار عليه ان لا يتصل بفخر الدين « لانه على غير دينهما »، وان ينتظر عودته من الاستانة، حيث يستجلي الاحوال، فيدلي اليه بما يراه موافقاً لمصلحته . ولما عاد وجد الامير يحيى في انتظاره بعكا، « فنصحه ان يرجع حالاً الى اوربا، وان لا يضع ثقته بفخر الدين، لانه لا شك خائنه » .

لا نعلم السبب الذي حمل الحاج كيوان على سلوك هذا المسلك . أهي الخيانة، ام الرغبة في ان يوفر على مولاه مشكلاً جديداً يوسّع الخرق بينه وبين الباب العالي . ومهما كان الامر فالسلطان لم يكن مرتاحاً الى تصرّف فخر الدين، كما اعلمنا الرحالة ساندیس، الذي مر بلبنان في السنة ١٦١٠، ليس لتعدّيه على جيرانه فحسب، بل خاصة لعلاقاته المشبوهة بالغراندوق، حامي اخيه يحيى، وسماحه لمراكبه الحربية والتجارية ان ترسو في موانئه، وان تتموّن منها الزاد والماء . واردف الرحالة بقوله : « بيد ان الامير لا يعبأ كثيراً بتهديد السلطان لثقته بمناعة قلاعه وجباله، وبمهارة اصدقائه في شراء كبار الدولة بالعطايا[1] » .

ثانياً : الثناء على فخر الدين . وكان فخر الدين، كما سبق القول، شديد الميل الى المسيحيين، خاصة الموارنة، سعياً وراء انضمامهم اليه ضد الامير يوسف سيفا عدو الطرفين . فلما هرب بطريركهم يوحنا مخلوف من جور المذكور لاجئاً اليه، استقبله فخر الدين بالترحاب ورغّبه في نقل كرسيه الى مقاطعته وساعده على بناء كرسي له وكنيسة في قرية مجد المعوش، وما زال حتى سلمها للموارنة[2] . فلما بلغت هذه الاخبار بولس الخامس كتب الى البطريرك يوحنا في ٢٥ ايلول ١٦١٠ رسالة مدح فيها ثبات طائفته على الايمان القويم، مع انها محاطة بالهراطقة والمنشقين كالوردة بين الاشواك . واكّد له انه ساعٍ الى راحتهم الروحية والجسدية معاً بتخليصهم من نير الاتراك . واردف بقوله : « وقد افعم قلبنا سروراً ما بلغنا عن فخر الدين، امير الدروز، انه على جانب

---

(١) ساندیس ص ٢١٣

(٢) ر ص ٣٧

عظيم من البسالة والقوة والمواهب الحربية، وانه عدو لدود للاتراك، ومحب لكم وللمسيحيين اجمع . وهو يفتخر لتحدره من قواد الصليبيين . فنرغب اليك ان ترعى صداقته ليواصل حمايته لك ولطائفتك . ولعل كرهه للاتراك وميله اليكم يجلبانه يوماً الى دين المسيح . وقد رأينا ان ننبه فطنتك الى الاستفادة من هذا الاستعداد الطيب، وتوجيه جهودك الى هذه الغاية الحميدة[١] » .

٢ ـ **بين الموارنة واسرة مديشي** ـ علائق الموارنة بأسرة مديشي اجتازت اكثر من ثلاثة قرون في فروع العلم والسياسة والدين .

اولاً : العلائق القديمة . ترجع الى السنة ١٤٩٧، حين دخل في حوزة هذه الاسرة، او على الارجح في حوزة لاون العاشر المديشي، قبل تبوئه الكرسي الرسولي، الانجيل السرياني القديم الثمين المزين بالرسوم الجميلة، المعروف بانجيل رابولا، الذي خط في السنة ٥٨٦ مسيحية . وقد كان ملكاً للكرسي البطريركي الماروني، كما تشهد الحواشي المعلقة على هوامشه منذ السنة ١١٥٠ م .

وكان للبابا لاون العاشر المذكور (١٥١٣ — ١٥٢١) عطف خاص على هذه الطائفة، يكاتبها ويشجعها على الثبات في العقيدة الكاثوليكية، ويدافع عنها في لبنان والقدس وقبرس . ويوفد اليها القصاد والحسنات[٢] . وقد مر بك ان فردناندو الاول، لما كان كردينالاً في رومية، تولى حماية الطائفة المارونية وطبع لها في السنة ١٥٩٢ كتاب القداس طبعة جميلة لم تضارعها الطبعات الكثيرة التي توالت بعدها[٣] . وفي السنة ١٧٣٧ زادت ثروة المكتبة المديشية في فلورنسا بمجموعة من المخطوطات الخارجة من خزانة الكرسي البطريركي الماروني، كما تدل حواشي الهوامش وكلمات « من السيد البطريرك »، المكتوبة داخل جلودها . واكبر الظن ان جالبها المطران اسطفان عواد، واضع فهرس تلك المكتبة .

---

(١) ف ١٥٥ ـ ١٥٩

(٢) راجع براءات العنيسي ص ٢٥ ـ ٥٢

(٣) ر ص ١٦٤، حيث وردت سنة ١٥٩٠ خطأً

وكان امراء تسكانا يحمون الموارنة، تجارهم ومسافريهم، من اذية قرصانهم، او يستردون لهم الاسلاب والاسرى . وكانوا يولونهم ايضاً الحماية والميزات في موانئهم . منهم آل كبّه الحلبيون، الذين اتخذوا ثغر ليڤورنو مركزاً لتجارتهم مع الشرق، فبلغوا من الثروة والجاه المقام الاول بين أسر هذه المدينة، وتولى احدهم، المطران انطون غنطوس كبه، اسقفية تلك الابرشية .

وخدم الاسرة المديشية كثيرٌ من علماء الموارنة، كالخوري نصرالله شلق العاقوري († ١٦٦٣)، الذي كلفته مهمة خطيرة، سيأتي بيانها؛ والخوري بطرس مبارك († ١٧٤٢)، الذي منحه الغراندوق قزما الثالث لقب « استاذ في مجمع پيزا العلمي »، ووكل اليه تنظيم المطبعة المديشية في فلورنسا[1]؛ والمطران اسطفان عواد، الذي رتب فهرس المكتبة المديشية في المدينة نفسها .

ثانياً : رسالة البطريرك مخلوف الى قزما الثاني . وقد عثرنا بين الوثائق المديشية على رسالتين وجههما البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني الى قزما الثاني ووالدته الغراندوقة في مطلع العام ١٦١١ . وقد تعبنا كثيراً في نقلها لتأكل الورقة من مزج الغاز في الحبر، على عادة تلك الايام . وهاك نص كتاب البطريرك الى قزما الثاني . وهو بالكرشوني :

مكان الختم البطريركي[2]

[٩٩]

فهرس فهرست الفهارس
وفهارسها مفهرسة مفهرسا

(١) راجع التاريخ المؤصل للمطران الدبس ص ٤٦٧

(٢) الختم مستدير وفي وسط الدائرة صورة والدة الله حاملة طفلها وهو يبارك بشماله وعلى الجانبين رسم صليب مربع . وعلى الدائر في الصف الاول Petrus Patriarcha Antiochiæ + وفي الصف الثاني من الداخل + فهرس فهرست وفهارسها مفهرسة

والیك النص الحرفي بالعربية :

بطرس بطريرك الموارنة الانطاكي يوحنا الحقير[1]

البركة الالهية والنعمة السماوية التي حلة على تلاميذ سيدنا الرسل القديسين في علية صهيون المقدسة هي تحل وتنمى وتستقر على ذات السيد الشريف البهي قوزما امير فيرنسا البركة الرسولية تكون حاللة عليك وعلى قرايبك وعلى حكمك وعلى معاملتك وعلى ساير كبارك مع صغارك حفظك الله دايماً امين وسبب تسطير الاحرف هي المحبة اليك لاجل احسان ابيك الجزيل الذي كان يصنع معنا ومع طايفتنا الرب الاله ينيح نفسه بالراحة الابدية امين ونعلم بهايك بان واصل اليك اخونا العزيز

(١) العنوان بالسريانية . ܚܩܝܪܐ معناها الحرفي : الضعيف . وقد درجت بدلاً منها كلمة « الحقير » في الرسائل البطريركية

جرجس اسقف قبروس وهو يتكلم مع بهايك من عندي لانه هو قاصدي امام الكرسي الرسولي وامرته بعد ما قضا المصالح عند سيدنا الفافا ان يجي يزور بهايك ويسلم عليك ويقريك من عندنا البركة الرسولية ويقول لبهايك جميع ما بخاطرنا اعني نطلب من بهايك ان تعمل معي ومع طايفتنا نعمه في مدرسة في معاملتك اين موضعاً راد بهايك حتى نبعاث اولاد من عندنا يتعلمون العلوم الروحانية ويرجعون ها هنا يكرزون الايمان القاثوليقي ويعينوا الكنيسة ويرددون الهراطقة الى الايمان الصحيح مثل ما يعملون الان اولادنا الذين يتعلمون بمدرستنا برومية واذا بهايك تعمل النعمة تبعاث تخبرنا حتى نبعاث اولاد يسكنون تحت فيأك لان هذه حسنة عظيمة ما لها حد الخ . ثم لاجل ان طريقه صعب ما يمكن الا انه يحتاج الى سدقاتك ولذلك نطلب الى بهايك ان تملء كل عازاته كجاري عوايد محبتك ومحبه ابوك المرحوم نحونا ونحو قصادنا من جهة الزوادة والكسوة وغيره حتى يقوا يصل الينا لان ما قدرنا نعطيه كل عازته من الضيق للخرج الذي نعطيه للتورك ومهما عملته معه فيصير ذلك معنا وانت ايضاً امر بكل ما كان عندك من المصالح في بلاد الشرق حتى نقضيهم على الراس تم ذلك نثني البركة والنعمة والسلام الرباني عليك وعلى كل معاملتك ولاجل الله لا تستهتر في اخونا المذكور لان اتكالنا على الله وعليك والرب يحفظك ويبارك عليك

كتب ذلك بدير قنوبين مكان كرسينا الانطاكي في جبل لبنان بسنة بطريركيتنا الثالثة بشهر كانون الاخر بسنة اسيا[1] ربانيه

ثالثاً : من البطريرك مخلوف الى الغراندوقة

(مكان الختم البطريركي)

[٢٨٧]

هذه هي نسخة الرسالة
وهذه هي ترجمتها

(١) ١٦١١ ؛

وعلى قفا الكتاب :

الى الاسعد المعتمد المحترم فخر الدين امير [٢] فرنسا ومقدمها

واليك النص الحرفي بالعربية :

بطرس بطريرك الموارنة الانطاكي يوحنا الحقير

البركة الالهية والنعمة السماوية التي حلة على تلاميذ سيدنا الرسل القديسين في علية صهيون المقدسة فهي تحل وتنمى وتستقر على ذات السيدة الشريفة البهية اميرة فيرنسا البركة الرسولية تكون حالة عليكي وعلى قرايبك وعلى حكمك وعلى معاملتك وعلى ساير كبارك مع صغارك حفظكي الله دايماً امين وسبب هولاي الاربع ما هو

---

(١) مكتوبة بين السطرين

(٢) فرنسيه كما جاء في متن الرسالة

اخر الا كثرة الحب والشوق الى فخركي لاجل كثرة احسان جوزكي دوكا فرديننو مديشي الذي عملهم معنا الرب يعطيه الراحة في حياة الدايمة امين

نعلم فخركي ان امرنا لقاصدنا واخينا جرجس اسقف قبروس حتى يجي يزور فخرك بعدما اقضا الامور امام الكرسي الرسولي حتى نحسن نعرف خبر شيئاً حسن عن اقنومكي حتى قليلا نقدر نتسلى وايضاً حتى تامرينا شيئا في هولاي البلدان اعني في حلب دمشق اورشليم بيروت وصيدا طرابلوس وفي بلدان اوخار وفي الخاصة في قوبروس التي اسقفها ردنا نبعثه حتى يزور فخركي وهو يتكلم مع فخرك ويعلمكي بماذا نزيد الذي اتكرس مننا من جديد[1] واذ هو لم لقا في اسقفيته اللبس الاسقفي نطلب منكي حتى تنعمي عليه في واحد : لاجل منفعة هوليك الانفس لاجل ان نحن لم قدرنا نعطيه التي كان يعتازه لاجل كثره القهر الذي في هولاي البلدان وحتى نتمم نرجع نثني البركة الالهية من عندنا ومن عند مطارينا واساقفتنا ولاجل ذلك نوصي فخركي في اخونا المذكور ونتضرع اليكي حتى لا تتخلي في هذا الامر : ولاجل النعمة المقبولة نصير ملزومين [نصلي] حتى الرب يعطيكي زمان طويل الرب يمنح امين

كتب ذلك بدير قنوبين مكان كرسينا الانطاكي في جبل لبنان بسنة بطريركيتنا الثالثة بشهر كانون الاخر سنة اسيا رباني

وعلى قفا الكتاب :

الى السيدة الشريفة المفتخرة امرة الدوكا فدريكو[2] اميرة تسكانا في فيرنسا معاملتها[3]

٣ ـ **مشروع المعاهدة ضد تركيا** ـ بيد ان المطران جرجس كان حاملاً في صدره، خلاف هاتين الرسالتين، مشروعاً خطيراً عرضه على الكرسي الرسولي، وشرحه

---

(١) هذا يصحح ما جاء في الدويهي (د ١٩٣) انه سيم اسقفاً في السنة ١٦١٤

(٢) فرديننو كما جاء في متن الرسالة

(٣) ف ١٥٨ ـ ١٦٢

في تقرير خطي قدمه الى الغراندوق قزما الثاني . فقد توفي مراد باشا، الصدر الاعظم وصديق فخر الدين، في تموز السنة ١٦١١ وخلفه في آب تلك السنة نصوح باشا عدو الامير[١] . فرأى فخر الدين ان يحتاط لنفسه من شره ويستعين بالامراء المسيحيين عليه . واتفق مع البطريرك يوحنا على تكليف قاصده المطران جرجس مفاوضتهم بتوقيع معاهدة ضد الاتراك . وهو ما يحملنا على الظن ان الرسالتين المنشورتين اعلاه، الحاملتين تاريخ كانون الثاني من تلك السنة، لم تقدما الا في خريفها او بعده . الا اذا قدّرنا للمطران جرجس رحلتين في السنة عينها، وهو غير محتمل . واليك تعريب هذا التقرير الخالي من التاريخ :

« لما اصبح البطريرك الانطاكي، في اثناء زيارته الرعائية، على مقربة من صور وصيدا، استدعاه امير هذه الجهات واخذ يسأله بهذه الصورة « سمعت ان اميراً في رومية تسمونه البابا الروماني يحكم على كثيرين من الدوق والامراء والملوك، وغيرهم من اصحاب السلطة، وهم يطيعونه لدى صدور ادنى اشارة منه » . فاجابه البطريرك « جميع الكاثوليك ملتزمون بطاعته، وعاملون بأوامره » . فقال امير صور وصيدا « انظر اذا كان له رغبة في الاستيلاء على هذه البلاد، او ايفاد من يستولي عليها . فاني أعده، وقد اقسمتُ واقسم ليس بالسماح الى غلايينه ورجاله بالنزول في موانئي فحسبُ ، بل بمناصرته بكل قواي على هذا الكلب التركي » .

« بيد اني طالب امراً واحداً . وهو ان يقسم لي قبل ان نباشر الحرب ان لا يلحق الاذى بي او باولادي، وان يترك لي مملكتي ويقدم لي حاجتي من الاسلحة؛ وان يبعث باسطول مؤلف من خمسة عشر غليوناً وعشرين غراباً، على اقل تقدير، ليرسو في صيدا . فنتمكن من الاستيلاء على كامل فلسطين، وخاصة القدس . وليس لهم ان يستغربوا انني لم أفِ بوعدي تلك المرة[٢] . فالاغربة والقوات التي ارسلوها لم تكن كفوًا للنجاح . فلم أرَ داعياً للمجازفة بقواي ليقيني انهم خاسرون » .

واردف المطران جرجس بقوله : « اما الآن فقد تم الاتفاق مع اميرنا يوسف خاطر حاكم جبل لبنان . وهو كاثوليكيٌ ماروني وتحت يده ثمانية آلاف من الموارنة ينتظرون

---

(١) مح ٤ : ٣٥٧

(٢) يشير الى حملة فردناندو الاول على قبرس في السنة ١٦٠٧

بفارغ الصبر الفرصة للتخلص من عبودية الاتراك . والموارنة منتشرون ايضاً في طرابلس وحلب ودمشق وفنيقيه ونيقوميديه واورشليم، واماكن غيرهـا من فلسطين . ومنهم ايضاً فئة في انطاكية، ولا ينقصهم سوى السلاح . اي بنادق وسيوف وتروس وكمية من البارود تبلغ المليون تقريباً ؛ فضلاً عن المدافع لضرب الاسوار والحصون . ولا بد من ارسال هذه الاسلحة قبل الشروع في العمل، ليتسنى توزيعها على المحتاجين اليها . ولدى امير صيدا جيش يبلغ سبعين الفاً . وهو متفق مع بقية الامراء ان يسمحوا للجيش المسيحي بالنزول في صور وصيدا وطرابلس . وهي ثغور واقعة على البحر المتوسط

« واذا طلب الحبر الاعظم ضماناً، فهم مستعدون ان يسلموه رهائن من اقاربهم، او صكوكاً مكتوبة بخطوط ايديهم ومهورة باختامهم، يقسمون فيها ان يثبتوا على العهد المقطوع . ويجب ان لا يباشر امر ما قبل اطلاع البطريرك الماروني وحاكم جبل لبنان عليه، لخبرتهما بدخائل الاتراك وحبائلهم . وقد يحدث فجأة ما لم يخطر على بال .

« اما ما خص جزيرة قبرس ابرشيتي فأرواما صرحوا لي انهم سئموا حكم الاتراك، وما عادوا يطيقون حمل نيرهم . ورجوني تبليغ الغراندوق، انه اذا كان راغباً في تملك الجزيرة ليس له الا ان ينبههم الى الامر ويمونهم بالاسلحة الضرورية، ليوزعوها على المسيحيين . حتى اذا ظهرت الاغربة التسكانية امام الجزيرة حاربوا هم الاتراك من الداخل بينما تحاربهم الاغربة من الخارج . لان الاتراك لم يعـودوا يسمحون لهم بتقلد السلاح . فقد قتل الاروام منهم اخيراً اربعة آلاف بالمناجل، لخطفهم نساءهم وبناتهم . فحرّموا عليهم نقل اي أداة حادّة .

« وفي الجزيرة خمسة عشر الف مسيحي بين اروام وموارنة ونساطرة ويعاقبة . وليس في فاماغوستا ونيقوسيا سوى ثلاثة آلاف جندي . وقالوا لي ايضاً انهم غـير راغبين في تولّي ملك اسبانيا عليهم، ويفضلون حكم الغراندوق . ولو انتظرت الحملة التسكانية تلك المرة ربع ساعة فقط لوقعت في يدها مفاتيح المدينة والحصن . امـا اعيان الجزيرة فقد جاهروا انهم غير مستعدين لان يُقتلوا في سبيل السلطان » .

ولبث المطران جرجس في ايطاليا اكثر من سنة . فقد كتب من مونتي في ٥ ايار ١٦١٣ الى البلاط التسكاني كتاباً ضمّنه ترجمة رسالة البطريرك الى الغراندوقة، ورجا فيها البتّ في امر مهمته « ليتسنى له مواصلة رحلته العائدة على سمّوه بفائدة جزيلة » .

وفي ٢٥ ايار من السنة عينها كتب من البندقية الى الغراندوق يشكر له عطفه عليه وعلى بطريركه وطائفته، وتبرعه بمئة دوقية، تسلمها من فرنسيس لونا[١]. وختم الكتاب بقوله « لما كان والدك، رحمه الله، قد عيّن كاتبين يوافيانه باخبار الشرق، فاني مستعد للقيام بهذه المهمة على نفقتي الخاصة ».

ومهر المطران جرجس كتابه بخاتمه . وهو يمثل حمامتين واقفتين على جانبي صليب يعلوه تاج اسقفي . وعلى دائر الخاتم بالسريانية : [illegible] مع ترجمتها باللاتينية على الدائر نفسه . اي جرجس بن مارون اسقف جزيرة قبرس[٢] .

٤ ـ **فخر الدين في ليفورنو** ـ كان حافظ احمد باشا والي الشام قد اثار على الامير حفيظة نصوح باشا الصدر الاعظم، وهيّج جشعه في بلاده « لانها عامرة واهلها متكاثرة فيتحصل منها اموال جمة » . فعزل الوزير نكاية بالامير حليفيه عمرو شيخ المفارجه عن حوران، والشيخ حمدان قنصوه عن عجلون . فاعادهما الامير الى منصبيهما بالقوة، نزولاً على شور الحاج كيوان والحاحه[٣] . ولما بلغ نصوح باشا خبر هذه الجسارة جهز عليه حملة قوية برًّا وبحرًا . بيد ان الاسطول البحري الذي حضر الى صيدا لم يلبث ان اقلع عنها للحاق بالاسطول الاسباني، الذي أسر من العمارة العثمانية سبعة مراكب . فانتهز الامير هذه الفرصة وجهز ثلاثة مراكب سافر بها قاصدًا الى ايطاليا . واليك بعض التفاصيل عن وصوله ومشروعه، نقلًا عن الوثائق المديشية :

اولاً : وصوله . دخل مركب الامير ثغر ليفورنو الساعة الثالثة والعشرين من يوم ٣ تشرين الثاني ١٦١٣ . ولما سئل عن شخصه وامره عرفهم بنفسه وصرح لهم انه

---

(١) Luna اي قمر . ولعله قريب يعقوب قمر الماروني، صاحب المطبعة الشرقية في رومية . ذكر الدويهي في تاريخه (ز ١٣٦ ق) وصية مريم شاميه بنت قمر، التي توفيت في رومية سنة ١٦٣٥

(٢) ف ١٦٣ ـ ١٦٦

(٣) خ ٩ ـ ١١

قادم لمفاوضة الغراندوق في امر خطير . فسمحوا له بالنزول وحده ، واكتفوا من معاملات الحجر الصحي بان ابدلوا ثيابه[١]

وكان بمعيته في المركب ستة عشر شخصاً . ولم يحمل معه من المال سوى الضروري، خوفاً من الخيانة، ومن ان يخاطر بماله وشخصه معاً . واخبرهم ان وراءه مركبين . احدهما يحمل زوجته خاصكية وطفلها واخاها علي الظافري وجواريها، والآخر مستشاره الحاج كيوان واسرته وخدمه . وعدد الجميع اربعون نفساً بين رجال ونساء . وكانوا سائرين سوية حتى اذا خرجوا من جزيرة كنديا فرقتهم العاصفة . على انهم كانوا قد تواعدوا سابقاً على اللقاء في شيفيتا ڤكيا، ميناء دولة الكرسي الرسولي، او في ليڤورنو ميناء دولة تسكانا .

فطير حاكم ليڤورنو الخبر الى الغراندوق قزما الثاني، فبلغه وهو ذاهب لحضور رواية في سينا[٢] . فاوفدت والدته الغراندوقة احد اخصائها ليسلم على الامير عنها وكتبت حالاً الى وزيره لورنسو اوزمباردي ان يركب سريعاً الى ليڤورنو لاستقبال الامير « الذي كان له عند زوجها المرحوم[٣] المكانة الكبيرة » ؛ وان يوعز الى حاكم المدينة والى الاميرال انجرامي بان يحتفيا به الحفاوة كلها، ويوفّرا له كل اسباب الراحة والطمأنينة، وينفقا بسخاء عليه وعلى حاشيته .

وقبل ان يسافر الوزير بلغه امر الغراندوق بان يكتب حالاً الى حكام جميع ثغور ايطاليا وامرائها، ينبئهم بقدوم الامير، وغايته من جمع كلمتهم على الدولة العثمانية . ويرجوهم ان يشيّعوا المركبين الحاملين زوجته ومستشاره الى ليڤورنو، اذا رسيا في موانئهم .

وكتب الغراندوق الى سفيره في روميه يبشره بوصول « الامير فخر الدين، الثائر على الدولة العثمانية، ليفاوض بنفسه الامراء المسيحيين بالمشروع الذي وضع اساسه والده فردناندو الاول، ولاحقه هو باذن قداسة البابا لمصلحة النصرانية . والقادم من اكبر امراء الدولة العثمانية . ولما كان آتياً من تلقاء ذاته، فلا شك ان المحرك له هو الهدف، الذي جاهد الغراندوق والده في تسديد خطواته اليه . كما يذكر قداسته، الذي رخص

---

(١) خ ٣١ و٣٥ و٢٠٨ - ٢١٠

(٢) Siena عاصمة تسكانا القديمة

(٣) فردناندو الاول

له بان يبعث اليه بالذخائر الحربية وبرجال المدفعية » .

وكتب ايضاً قزما الثاني بهذا المعنى الى كاتم اسرار البابا بولس الخامس، والى ملك اسبانيا، والى نائبي هـذا الملك في نابولي وصقليه . وامر القنصل بيانكي ان يتوجه لهذا الغرض الى ثغرَي مرسيليا وطولون الفرنسويين .

وحمّل الغراندوق وزيره كتاباً خاصاً الى فخر الدين يهنئه فيه بوصوله سالماً، ويرّحب به الترحيب كله، ويبدي السرور بمجيئه . قال « فيتسنى لي ان اعبّر مشافهةً عما لك عندي من الاعتبار والحب، لمكانتك الشخصية وشرف محتدك . واني موفد اليك وزيري ليهنئك باسمي، ويدعوك الى فلورنسا عاصمتي . وقد حررت الى جميع موانئ ايطاليا وفرنسا لكي لا يعيقوا المركبين المتأخرين عن مواصلة سفرهم الى هنا . وامرت جميع موظفيّ ان يخدموك ويضيفوك بسخاء ويلبوا كل رغائبك، ويوفروا لك كل اسباب الراحة والكرامة » .

ثانياً : غايته من المجيء . وقابل الوزير الامير وسلمه الكتاب وسأله بلباقة عن غاية مجيئه وما يطلبه من المساعدات . فادلى الامير اليه بحديث مآله « ان الاتراك حاقدون عليه لحمايته النصارى ومحبته لامرائهم، وسماحه لمراكبهم، خاصة التسكانية، باللجوء الى موانئه والتموّن منها . ولما مات في الاستانة صديقه الوزير الاعظم وخلفه عدوه نصوح باشا، اقنع احمد باشا دمشق هذا الوزير ان يجهّز عليه حملة قوية براً وبحراً . فرسا الاسطول العثماني امام عكا[1] واوفد عشرة اغربة لمحاصرة صيدا ومنعه من الهرب . بيد انها لم تلبث ان اقلعت عنها وانضمت الى الاسطول لاستخلاص الاغربة العثمانية السبعة، التي أسرتها مراكب مسّينا الحربية . فحصن الامير ثلاثاً من قلاعه وجهزها من الاعتدة والمؤن ما يكفيها ثلاث سنين، ووضع فيها جنوداً امناء عاصين على الدولة، يئسين من العفو، ودفع رواتبهم سنتين سلفاً . وسلم ولده قيادة خمسة آلاف مقاتل من جيشه، واخاه القسم الباقي منه، ليناوشوا الجيش العثماني دون ان ينازلوه .

---

(١) كانت تابعة للامير

« ولما اقلعت الاغربة العثمانية عن صيدا انتهز الفرصة . فنزل من دير القمر واستقل ثلاثة مراكب، ركب الاول واركب في الثاني زوجته وفي الثالث مستشاره كيوان صاحب الرأي الاكبر في هذه الرحلة .

فبلّغ الوزير مولاه حالاً هذا الحديث وختمه عن لسان الامير بقوله : « ولما كان فردناندو الاول والدك قد بعث اليه بهدايا من البنادق والمدافع والسيوف والمواد المتفجرة، وعقد معه محالفة صداقة، وفاز له ببراءة من البابا، أمّل الامير ان تكونوا سائرين على خطى والدكم، فقرر ان يلجأ اليكم، او الى البابا، لو وافقته الرياح على الوصول الى شيفيتا ڤكيا » .

« وغايته من المجيء ان يطلب اليكم، والى سائر الامراء المسيحيين بوساطتكم، قوة تمكنه من استعادة صور وصيدا وبيروت وتسليمها اليكم، او الى من ترغبون في ان يتسلمها . وهو يقف في داخل البلاد بعشرين الفاً، ويدافع عن هذه الثغور . وفي ظنه ان العمارة العثمانية لا تعود هذه السنة الى شواطئه لدخول الشتاء . بيد انها عائدة لا محالة في السنة القادمة، لاسيما بعد ان علم السلطان بلجوئه اليكم . على ان هذه العمارة لم تُجهَز بما يمكّنها من التغلب على اساطيل المسيحيين . وفي وسع الاساطيل المذكورة ان تحتل هذه الموانئ وتحتفظ بها بعد تحصينها، لاسيما اذا دافع عنها الامير بجيشه . وقد اوصى ولده ان لا يثق مطلقاً بالاتراك وعهودهم، فلا يصالحهم، لئلا يصيبه ما اصاب اجدادهم، فقد غدر الاتراك بهم بعد ان اعطوهم الامان .

« وهو مستعد ان يقود بنفسه الحملة التي يجهزها الامراء المسيحيون، فيحتل اورشليم وطرابلس ويسلمها اليهم . كذلك دمشق، التي فتحها في عهد واليها الحالي، ثم عاد عنها دون ان يلحق باهاليها اذى[1] . واذا لم تتفق كلمة الامراء المسيحيين فيرجو تجهيز بعض المراكب ليجلب عليها ما بقي له من مال ومتاع ويقضي بقية حياته تحت حمايتكم وفي خدمتكم . وهو شاكر لكم حفاوتكم به وعنايتكم براحته .

« صح . بعد كتابة هذه الاسطر ظهرت في عرض البحر قلوع مربّعة فاوفدتُ رجلاً تحقق انهما المركبان المنتظران . وقابل الاميرة فكلفته السلام على زوجها . وهو

---

(١) لم يرد ذكر هذا الفتح في الخالدي . بيد ان الدويهي يؤيده (ز ١٣٤ ق)

لما تلقى هذه البشرى سرّي عنه وسرّ السرور كله . وغداً يدخل المركبان الميناء باذن الله[١] » .

ثالثاً : استقباله . وفي الثامن من تشرين الثاني ركب الامير بصحبة الحاكم زورقاً لملاقاة زوجته . وقادوا المركبين الى البر . فترجل الحاج كيوان والمدعو كردانا، قنصل فرنسا في صيدا . اما النساء فانزلوهن ليلاً لتحجبهن . وأُفرز لاسرة الامير جناح من قصر الحاكم، حيث سدّت بعض الابواب . وخُصص لاسرة كيوان قسم من دار رئيس الامن؛ واقتضى، بناء على رغبته، اجراء عدة اصلاحات وسدّ النوافذ بالشعريات .

وفي غضون ذلك كانت الاستعدادات لاستقبال الامير في فلورنسا قائمة على قدم وساق . غير انه صرح برغبته في دخول العاصمة متخفياً بدون حاشية . فاجيب الى رغبته . وارسل قيم الغراندوق لركوبه وحاشيته عربتين فخمتين، الواحدة بستة رؤوس خيل، والثانية باربعة . ولما علم الغراندوق ان الامير يفضل ركوب الخيل في السفر، ارسل اليه حالاً جوادين بعدتين شرقيتين .

وفي الحادي عشر من تشرين الثاني خرج الامير من ليڤورنو بصحبة كيوان وترجمانه اسحق عزيز[٢] والقنصل واربعة من خدمه . ورافقه في هذه الرحلة الوزير اوزمباردي والاميرال انجرامي . وكان الامير عند وصوله الى ليڤورنو قد سأل عن القائد جواداني، الذي عرفه في صيدا، فأُوفد اليه . ثم سبقه الى فلورنسا ليعلم الغراندوق بطريقة استقباله ويخبره عن احواله . واعدوا لنزول الامير على الطريق ظهراً وليلاً ثلاثة قصور في پيزا وفي سان ريمو وفي الامبروجيانا، وفروا له فيها كل اسباب الراحة والرفاهية . فوصل الى فلورنسا مساء اليوم الثاني عشر . وكان في انتظاره خارج المدينة الامير انطون مديشي مع بعض الاعيان . فاركبوه عربة مقفلة دخلت به قصر الغراندوق من باب الجنينة . فاستقبله الغراندوق ووالدته وزوجته وكبار الدولة بابهة ولطف . وعينوا لنزوله القصر العتيق . وهو من آيات الفن، واقع على الضفة الاخرى من النهر وبينه

---

(١) ف ١٦٦-١٨١

(٢) Caro

وبين القصر الجديد[١] دهليز قائم على جسر يعد من عجائب ذلك العصر[٢].

رابعاً : السعي لدى الكرسي الرسولي . وشرح الامير للغراندوق ما جرى له مع والي دمشق والوزير، وما اعدّه من التحصينات واتخذه من الاحتياطات لحماية البلاد من الحملة العثمانية . وانه جاء ليطلب المساعدة على الدولة . فكان هذا الحديث موضوع تقرير ارسله العاهل الى سفيره في رومية، ليطلع عليه الحبر الاعظم . ومؤداه : ان احمد باشا الحافظ، بعد ان تسلم منه ثلاثين الف قرش لقاء وعده باعادة احد حلفائه الى منصبه، ارسل قوة تمنعه من ذلك . وكان بمعية حليفه ولد الامير، فدافع عنه، وقتل بعضاً من جنود الحافظ[٣]. فاستكتب الحافظ شكاوي على الامير متهماً اياه بمقاومة الدولة ومحاربة جنودها وبمحاصرة دمشق والتضييق عليها حتى امتنع اهلها عن الخروج[٤]. فجهز الباب العالي عليه حملة قوية برّاً وبحراً . اما الامير فحصن اربعاً من قلاعه، وزودها بالمؤن ما يضمن ثباتها ثلاث سنوات . واقام عليها جنوداً امناء، ودفع رواتبهم سنتين سلفاً . وقصد الى اوربا يطلب الى الغراندوق والى الامراء المسيحيين ان يسعفوه بعمارة يسترد بها بلاده . وهو يسلم اليهم موانئه ويحارب في الداخل دفاعاً عنها . ولديه عشرون الف مقاتل مدرّب، فضلاً عن اصدقائه العرب، الذين يضعون تحت تصرفه من الرجال العدد الذي يطلبه . ولا يسع الدولة العثمانية تجهيز عمارة تقف في وجه الاساطيل الاوربية، وليس لديها قوّاد مدرّبون كالاوربيين .

«واذا شاء الحبر الاعظم ان يأمر الموارنة الطائعين له بمؤازرة الامير، فعلوا بارتياح، لانهم يعدّونه حامي النصرانية في الشرق . بيد انهم بحاجة الى السلاح . فبمساعدتهم ومساعدة الامير وخبرة قواد ماهرين يسهل على المسيحيين استعادة اورشليم والقبر المقدس . هذه

---

(١) Palazzo Nuovo. Palazzo Vecchio

(٢) ف ١٨١ - ١٨٥

(٣) روى الخالدي (خ ٩ - ١١) ان فخر الدين، نزولاً على الحاح كيوان، ارسل مع ولده علي قوة اعادت حليفيه، عمرو شيخ المفارجه وحمدان قنصوه، الى سنجقيتي حوران وعجلون . وكان نصوح باشا قد عزلهما عنها . ولعل كيوان حرف الوقائع ليعذر مولاه، او بالاحرى نفسه، عن مقاومته جيش الدولة

(٤) هذا يؤيد ما ذكر اعلاه عن حصار فخر الدين لدمشق في عهد الحافظ باشا

فرصة ملائمة جداً للقيام بهذا الفتح . حتى ان الامير لا يسعه ان يتصور كيف ان الامراء المسيحيين، كالحبر الاعظم وملك اسبانيا ، يتركون هذه الفرصة تفوتهم، وقد اعدتها لهم العناية الالهية . وهو مستعد الاستعداد كله ان يبذل في هذا السبيل ماله وحياته . ناهيك عن انه رجل باسل مقدام ذو مكانة واعتبار . وله من الاتباع عدد وافر . ولا ينقصه لانجاز هذه المهمة الخطيرة سوى القوات البحرية . لانه عاجز عن الدفاع عن بيروت وصور، اهم موانئه . اما في البر فلا يهاب الدولة العثمانية، ولو جهزت عليه مئة الف مقاتل .

« وقد الح في تجهيز مركب الى صيدا وصور وبيروت لاعلام ذويه بوصوله سالماً وحثهم على الثبات . وهو شديد الامل انهم ما زالوا ثابتين على عهده . اما الباشا الذي جاء اخيراً لمحاربته فلم يدخل سوى بعض المدن المفتوحة . وقد اخلاها الامير قبل سفره من رعاياه واموالهم لئلا يقعوا في يده . ونزولاً عند رغبته قد جهز الغراندوق مركباً مسلحاً يوفد فيه بعض الخبراء في فنون الحرب والتحصين، ليقفوا على مراكز الدفاع في بلاد الامير والموانئ والسواحل، ويأخذوا عنها الرسوم والتعليمات الضرورية، ويطلعوا على احوال البلاد واستعداد الرعايا ونيات العدو، وما شاكل ذلك من التفاصيل . وسيرافقهم بعض رجال الامير ليبشروا رعاياه بوصوله سالماً ويشجعوهم على الثبات . واذا رغب الحبر الاعظم ان يصحبهم ببعض الموارنة او بغيرهم ممن عنده في رومية، وان يكتب الى الطائفة المارونية لتقف بجانب الامير اذا عاد الى البلاد، فانه واثق من قهر الاتراك والاستيلاء على القبر المقدس ودمشق وطرابلس . وقد اظهر دائماً ميله الى المسيحيين واحترامه لهم . وهو يعتقد ان يد الله معهم ويعجب كثيراً بما شاهده هنا من الكنائس والمعابد المكرّسة لتمجيد الله تعالى . ولما كان على غير دين الاسلام، بل كارهاً له، فالامل غير بعيد ان يعتنق النصرانية يوماً، ويصبح خاضعاً للكرسي الرسولي مثل الموارنة . لاسيما اذا رأى المسيحيين يشدون إزره في محنته هذه . ولعل في نية العناية الالهية استخدام هذا الامير لاسترجاع الاراضي المقدسة، وهو الذي يجاهر بتحدره من بوّيون فاتح هذه الاراضي »

وفي اليوم الثالث والعشرين من تشرين الثاني، بعد ان تسلم سفير الغراندوق في رومية هذه التعليمات، واجه البابا بولس الخامس واخبره بوصول المركبين الخاصين بالامير

وشكر لقداسته اهتمامه بامرهما . ثم شرح له مـا تقدم عن احوال الامير وغايته من المجيء والفائدة التي ترجى منه للنصرانية لو ناصرته . لاسيما انه ذو مكانة كبيرة في بلاده ولديه من القلاع والحصون والقوات والاتباع ما يضمن نجاح الحملة المسيحية، اذا شاء الامراء القيام بها . فالفى السفير الحبر الاعظم مطلعاً على كل هذه الامور وقليل الثقة بالناس . واجابه انه يود من صميم فؤاده ان يخفّ الى نجدة النصرانية جمعاء، لو توفرت له القوى الضرورية . بيد انه يرى من الصعوبة التغلب على عدو بعيد وعنيد كالاتراك . فلا تجدي الحملة عليهم سوى اغضابهم ودفعهم الى الانتقـام من رعاياهم المسيحيين، وتجهيز عمارة هائلة على اوربا . واردف البابا بقوله : مهما يكن الامر فيصعب القيام بشيء في هذا الشتاء . اما في الربيع القادم فان دعت الضرورة فهو لا يتأخر عن عمل كل ما يعود على النصرانية بالفائدة[1] .

---

(١) ف ١٨٦ – ١٨٩

الفصل الثالث

بعثة الخبراء

١ ـ **الارشادات** ـ ومع ان جواب البابا لم يكُ مشجعاً ثابر قزما الثاني على فكرة البعثة، لاستطلاع احوال الامير وبلاده والفوز بالمعلومات الضرورية له ولبقية الامراء المسيحيين، اذا شاؤوا الاشتراك في الحملة . واليك بعض الارشادات، التي سُلّمت الى قائد المركب في ١٩ تشرين الثاني، مستقاة من فخر الدين وكيوان؛ فهي ذات قيمة .

« ... واذا بلغوا حيفا فليتظاهروا انهم تجار يرغبون في شراء القمح او خلافه. ولينشروا الراية الفرنسوية[١] ويستعلموا عن بلاد الامير، اهي براحة وباقية له ام آلت الى غيره، والى مَن، واذا كانت هناك حرية للتجول فيها والسفر الى صيدا وغيرها من الاماكن لمعاطاة التجارة، واين هو الامير الآن . فان لم يفوزوا بهذه المعلومات واصلوا سيرهم قريباً من الشاطئ لعلهم يلتقون بمراكب يلتقطون منها هذه الاخبار . والّا قصدوا حتى صور ودخلوها ليلاً، او في الساعة التي يرونها ملائمة .

« وفي صور، او في القاسميه، ينزل الى البر رجل ام اكثر، من الذين يعيّنهم سيدي علي، عديل الامير . وليتفقوا معه سلفاً على الاشارات التي يجب ان يعطيها لهم ليتدبروا امرهم ويعرفوا اذا كانت البلاد في حوزة الامير ام لا .

« وان لم يتلقوا منه اشارة، او لم يعد، تابعوا السفر حتى نهر الدامور، حيث برج كبير والنزول سهل . والّا فليُنزلوا رجالاً في خلده، بين الدامور وبيروت، حيث يجدون برجاً متهدماً . وليزودوهم بكتابين، الواحد الى الامير يونس، الذي يجدونه في احد القصور القريبة من بيروت، والثاني الى والد سيدي علي في حصن صيدا[٢] . واذا

---

(١) لان تسكانا كانت في حالة عداء مع تركيا

(٢) محمد ظافر، الذي بقي حاكماً لصيدا، كما سيأتي الكلام

علموا بخروج البلاد من يد الامير بقي سيدي علي في المركب متخفياً . ولهم ان يجلبوا الى المركب رجلاً يوافيهم بالمعلومات اللازمة . واذا شاء الامير يونس ان يوفد رسولاً الى اخيه فخر الدين فليقبلوه . واذا شاء بعض رعايا الامير ان يحملوا اليه شيئاً من البضائع او غيرها فلا مانع من قبولهم في المركب، شرطَ ان لا يعيقوا سيره . واذا تيسر للخبراء النزول فلينزلوا ويستعلموا عن ثغري صور وصيدا ويأخذوا رسمهما . وليزوروا القلاع ويتحققوا اذا كانت المواد اللازمة لبنائها وترميمها متوفرة، كالماء والكلس والخشب والحجارة » .

وفي ٢٣ تشرين الثاني كتب الغراندوق الى وزيره « ان يطلب من الامير المعلومات اللازمة لزيارة موانئه وقلاعه وسائر مملكته، لاستخدامها في مصلحته . وقد عيّن من رجال البعثة الفارس كارلو ماشنجي، والبيرقدار يوحنا سانتي، وقيصر انطونياتشي مهندس البلاط[1] . ومن الضرورة بمكان ان يزوّدهم سعادة الامير بالكتابات الى وزرائه وحكام البلاد ونظار الموانئ وقواد القلاع والحصون على الساحل وفي الداخل، والمدن والاماكن المحصنة، ليطلعوهم على كل ما يهمهم الاطلاع عليه، ويجيبوا على اسئلتهم بصدق واخلاص، ويصحبوهم بالادلاّء الامناء، ويسهلوا عليهم معاينة الطرق والمعابر، ويدلوا اليهم بكل التفاصيل التي يطلبونها . لتأتي تقاريرهم عن هذه الاماكن وافية بالغرض، واضحة، أمينة . وبعد ان يتسلموا هذه الكتب فليركبوا السفينة بصحبة الرجال، الذين ينتقيهم سعادته » .

واقلعت السفينة تركتنا بالبعثة المذكورة في اواخر كانون الاول ١٦١٣[2] .

٢ ـ **ثبات القلاع واللبنانيين** ـ وفي هذه الغضون وردت الى الغراندوق بشائر تنبئ بثبات قلاع الامير في وجه الحملة العثمانية، وتعلّق رعاياه به ودفاعهم عن بلاده . فطابت نفس الامير، وازداد الغراندوق عزماً على مناصرته . ومن هذه البشائر

---

(١) Cavalier Carlo Macinghi, l'alfiere Giovan-Battista Santi, Cesare Antoniacci.

(٢) ف ١٩٠ – ١٩٣

كتاب مؤرخ في ١٤ تشرين الثاني ١٦١٣ ورد من طرابلس، جاء فيه بعد الكلام عن سفر الامير : «وقد ترك اكثر من ثلاثة آلاف مقاتل في قلاعه . وهي منيعة لا تُنال . هاجم باشا دمشق اصغرها واضعفها بزهاء ستين الف محارب، فلم يفز منها بطائل، بل فقد من رجاله عدداً وافراً . فقد كان رجال الامير يرمونهم بالبراميل والصفائح المحشوة بالمواد الاصطناعية فتنفجر بينهم وتلحق بهم اضراراً جسيمة . وعرض الباشا على المدافعين ما شاؤوا من العهود واكثر لهم من الوعود . حتى انه بعث اليهم بورقة امان بيضاء مهرها بتوقيعه وخاتمه ليملأوها بما يعنّ لهم من الشروط . فرفضوا قبولها وصارحوه انهم يفضلون الموت على تسليم القلاع لغير الامير صاحبها .

« والحصار ما زال قائماً على قدم وساق . بيد ان المطر والبرد القارس يخففان من شدته كثيراً . وفي الجبال من احد عشر الى اثني عشر الف درزي رفضوا الطاعة للباشا والمتسلمين الذين عينهم في صيدا وفي غيرها من المدن . وهم يستميتون في القتال . وقد جاهروا انهم يفضلون الموت على الخضوع لغير اميرهم، ومستعدون لبذل ما يطلب منهم من الاموال ليعيدوه الى منصبه . وهم يبكونه كأب او كأخ للجميع . والحق يقال انه لم يكُ احد ينتظر ان يثبت رعايا الامير على ولائه الى هذا الحد . فان عاد بتأييد الامراء المسيحيين اصبح بلا شك سيد هذه البلاد بكاملها .

« هذا ما توصلت الى معرفته من اشخاص جديرين بالثقة » .

ثم تلقى الغراندوق من حلب كتاباً آخر مؤرخاً في ١١ كانون الاول من السنة ١٦١٣ نفسها يؤيد ما جاء في السابق عن ولاء الشعب للامير وثبات قلاعه، ويزيد عليه بقوله :

« ادلي بالمعلومات التي بلغتني عن معارك صيدا . فقائد الجيش العثماني العام، وهو حاكم دمشق، لما رأى رداءة الطقس وهجوم البرد القارس اصدر امره الى الجيش برفع الحصار عن القلعة . وقد عجز عنها مع انها اصغر القلاع الثلاث التي حصنها الامير[1] . ولما شاهد المدافعون عنها العدو هامًّا بالرحيل اخذوا يطرونه بشتى الشتائم مصحوبة بامارات الهزء والسخرية . فحنق الباشا وامر ان ينشطر الجيش شطرين يزحفان على

(١) «كانت مدة الحصار ستين يوماً بلياليها لا يبطل الضرب بالبندق والمدافع من الجانبين» (خ ٢١) .

البلاد لنهبها وتخريبها . خاصة جبل الدروز، الذين رفضوا طاعة السناجق والباشاوات المعيَّنين حديثاً . فقصد مصطفى باشا[١] مع اثنين من الباشاوات بقسم كبير من الجيش الى بلاد صفد، وتوجه حسين باشا ابن سيفا الى بيروت .

« فاخذ الدروز يتراجعون امام القوات العثمانية ويستدرجونها الى حيث يطبقون عليها فجأة، حتى وهنت عزائمها . فنازلوها ساعة، ثم تظاهروا بالهرب . وما زالوا على ذلك حتى اوقعوها في كمين هائل، حيث كان بانتظارها احد انسباء الامير يونس . فقتلوا منها مقتلة عظيمة . حتى ان بعض الكتب، الواردة الى هنا بالعبرية، تقدر خسارة العثمانيين بعشرة آلاف رجل، فضلًا عن كمية كبيرة من الاسرى، بينهم اربعة باشاوات . . . ومما استفز الدروز الى هذه الاعمال المجيدة الدفاع عن حريمهم . وقد جاهروا انهم يفضلون ذبح نسائهم واطفالهم والموت سوية في ساحة الوغى على الخضوع لغير اميرهم . وقال لي احدهم، قابلته في طرابلس، « يستحيل عليك ان تجد شعباً اكثر تعلقاً باميره منا . ونحن نبكيه كأن ولداً مات لنا » . فان ايده المسيحيون ببعض القوات، شاهدوا منه العجائب . والقلاع، التي تركها بين ايدي رجاله، منيعة لا تؤخذ الا بحصار طويل الأمد[٢] » .

٣ ـ رسالة فخر الدين الى سفير فرنسا في رومية ـ كان الكونت ده بريف[٣]، سفير فرنسا لدى الكرسي الرسولي، مستشرقاً وصديقاً للشرقيين . طبع لهم بالحروف العربية، التي كانت في حوزته، ترجمة التعليم المسيحي للكردينال بلرمينو، وكتاب المزامير . وقد سبق له ان مثل دولته في الاستانة، ومر بلبنان فتعرف الى الامير . ولما علم بقدومه الى تسكانا، كتب له كتاباً رقيقاً لم نقف على نصه . بيد اننا عثرنا على جواب فخر الدين له، فرأينا ان ننشر خلاصته وبعض فقرات منه للدلالة على احترام الامير للكرسي الرسولي والآمال التي كان يعلقها على نفوذه[٤] . ومما قاله « لم أبصر

---

(١) والي ديار بكر

(٢) ف ١٩٣ ـ ١٩٦

(٣) Comte François Savary, Seigneur de Brèves

(٤) نعتقد ان الانشاء ليس للامير، بل لاحد كتبة اسرار الفراندوق . وقد حاول بتضخيم التعابير والنعوت ان يصبغه بصبغة شرقية . فلم يفلح كثيرًا

في ظلمة محنتي سوى نورين يتلألآن في سماء النصرانية : ملك فرنسا صديق السلطان، وسمو الغراندوق، الذي استقبلني كملك ظافر لا كلاجئ شريد، وما زلت انعم في ظله بمظاهر الحفاوة والاكرام والسخاء والضيافة الملكية، حتى نسيتُ اني في غير مملكتي. ولم يكُ ينقصني في سعادتي هـذه سوى وسيلة الاتصال بملك فرنسا، لابين له حالتي واوسّطه في امري. وفي ما انا على ذلك اذا بكتابك يوافيني فاتحاً امامي هذا الباب على مصراعيه. لاسيما انك تمثل هـذا العاهل العظيم في رومية لدى « الشخص الذي يطيعه الملوك والامبراطرة، ويرتمون على قدميه كحامل مفاتيح السماء ». وقد رأيتَ بعينك اراضي مملكتي ووطئتها بقدميك، فعرفت موقعها الممتاز وقيمتها وحدودها وقلاعها ومدنها وموانئها وبحارها وسواحلها، التي تمتد على مسافة تزيد عن ثلاثمائة ميل؛ وقربها من الاراضي المقدسة، ومن تلك المدينة التي تحلونها محلًا سامياً من الاعتبار، لانها حوت قبر ذاك الذي تجعلونه شريكاً للاله الخالق. وانك تعرف ايضاً المقاطعات الخاضعة لي وخصبها وعدد رجالها وشدّة بأسهم، وعلاقاتي المتينة بالعرب وببقية جيراني.

« اما ما خص اسرتي وميولي، فاذا كانت تواريخ بلادي وبلادك لا تنبئك عنها، فاعلم اني من سلالة غودفريد بويّون[1]، الفاتح الباسل، الذي تحترمه فرنسا والنصرانية جمعاء. وما يبرهن اني لم أحِد عن شيمة آبائي وميولهم معاملتي الحسنة لجميع المسيحيين وعطفي عليهم جميعهم دون تمييز. ولي منهم شهود يوازي عددهم عدد الذين مرّوا ببلادي. فعليم الله انه لم يدخلها مسيحي دون ان يلقى مني الترحاب كله والحرية الكاملة بالتجول، مع الحماية الفعّالة وجميع التسهيلات الممكنة. يشهد لي بذلك موارنة جبل لبنان، الذين خولتهم الرعاية كلها وعطفت عليهم كأنهم اخوتي من لحمي ودمي ومن ابناء مذهبي؛ لاسيما بعد ان اوصاني بهم وصية حارّة فخرُ المسيحيين ورعبةُ الاتراك، الغراندوق فرداندو الاول، رحمه الله رحمة واسعة.

« فان شئت ان تُطلع هذا السيد الالهي[2] على ما تعلمه من هذا القبيل، وعلى ما يلهمك اياه عقلك الراجح، لا اشك اني مستعيد باذن الله مملكتي. ولما كان هـذا الامير السماوي مزداناً بالمزايا الخالدة، خاصة التقوى والفطنة، فهو بلا شك مدرك ان

---

(١) Godefroy De Bouillon

(٢) يعني الحبر الاعظم

عودتي الى بلادي هي عودة الحرية لكل مسيحي راغب في زيارة الاماكن المقدسة، وانها الباب المفتوح على مصراعيه لاسترجاعها . فان حملته كتاباتك على بذل الجهود، التي بذلها العبرانيون لاسترداد تابوت العهد، فتدّينه وحكمته لا شك حاملانه على اعتبار القبر المقدس بمثابة تابوت العهد الجديد . واذا كان احد افراد اسرتي قد دفعته تقواه وشجاعته الى استخلاصه، مع ما كان يعترضه من العقبات والمخاطر ويتطلبه من الجهود الجبارة، فاحرى بالذي تعتبرونه ملك ملوك الارض ونائب الملك السماوي ان ينتهز هذه الفرصة، فيقوم بالعمل الذي لا يعصى على سلطته الفريدة ومقدرته العظيمة . واني مستعد ان اقدم له كل الضمانات والعهود التي يطلبها مني . واذا لقيتَ في صدر هذا الاله الارضي وفي ذهنه المعصوم عن الخطإ استعداداً للنزول على شورك والاقتناع بحجتك، وجدتني رهن اشارته لتنفيذ كل اوامره[1]».

٤ ـ **جلاء حافظ باشا عن لبنان** ـ وبعد بضعة ايام من تاريخ هذا الكتاب تلقى الغراندوق من مكاتبيه السرّيين في الشرق اخباراً سارة عن فشل حافظ باشا في حملته وجلائه عن بلاد الامير . منها اشعار صادر عن الاستانة في ٢٤ تشرين الثاني ١٦١٣ جاء فيه «ان الباب العالي لم يعد بامكانه تهديد سواحل ايطاليا باسطول مؤلف من مئتي قطعة، انتقاماً للمراكب السبعة التي فقدها، لانه لما علم بوصول فخر الدين الى تسكانا لاستنجاد الامراء المسيحيين عليه، وطد العزم على ارسال كل اسطوله الى السواحل اللبنانية، مساعدة لباشا دمشق، وللجيش الذي يجهزه للدفاع عن هذه السواحل» .

وبلغ الغراندوق اشعار آخر صادر عن الاستانة نفسها بتاريخ ١٠ شباط ١٦١٤، ينبئه بتعيين بستانجي باشا مكان فخر الدين . وتلاه نبأ آخر تاريخه ٧ اذار ورد من حلب يشير الى جلاء حافظ باشا عن لبنان وثبات القلاع على طاعة الامير، وخروج المدافعين عنها لشراء حاجاتهم، وحجز الباشا على والدة الامير وخوفه من هجوم اللبنانيين على دمشق، «كأن قواهم اكبر من قواه . وقد اكثر من الحراس والعسس في الطرق

---

(١) ١٩٦ – ٢٠٠

المؤدية الى المدينة، خوفاً من المباغتة . وهناك نبأ جدير بالثقة عن وصول مركب الغراندوق الى لبنان ونزول بعض رجاله حاملين رسائل الامير، ورجوعهم سالمين الى المركب ؛ ما عدا واحداً امسكوه واخذوه الى باشا دمشق . وهذا الباشا جادّ في تجنيد الرجال لمنع نزول العساكر المسيحية الى الشواطئ اللبنانية » .

وقد بعث الغراندوق بفحوى هذه الرسائل الى الامير في ليفورنو، فسرّ بها غاية السرور، وكتب اليه يشكره ويرجوه تبليغها البابا وملك اسبانيا، لعلها تحملهما على مساعدته .

وتلقى الغراندوق من الاستانة رسالة اخرى، مؤرخة في ٢٢ كانون الثاني ١٦١٤، تبشره بوصول الترتانا الى لبنان وانها « انزلت ثلاثة رجال مسكوا منهم اثنين، الواحد مسيحي والآخر مسلم . ولما احضروهما امام باشا دمشق ادعيا انهما أُسرا واخذا الى ايطاليا قسراً . وأدليا بتفاصيل كثيرة عن استعدادات الغراندوق ونيات الامير ارتاحت اليها نفس الباشا، فكافأهما ببعض النقود وارسلهما مخفورين الى الاستانة ليبلّغا الباب العالي تلك الاخبار . فالمسيحي تمكن من الهرب عند وصوله الى قونيه . اما المسلم فناقض نفسه بنفسه . ولم يعد يُسمع عنه شيء[1] » .

٥ ـ **تقرير الشيخ يزبك** ـ عادت الترتانا الى ليفورنو في ١٠ نيسان ١٦١٤، وعليها الشيخ يزبك ابن عبد العفيف، من اعيان الشوف[2]، وثمانية وعشرون من رجال الامير وخدمه، بينهم الشيخ خاطر ابن ابي نادر الخازن، الذي بقي معه حتى رجوعه الى لبنان في ايلول السنة ١٦١٨ . وقدّم كل من الشيخ يزبك ورئيس البعثة ماشنجي والمهندس سانتي الى الغراندوق تقارير في غاية الاهمية لمعرفة الحوادث التي جرت في لبنان مدة غياب الامير، وخاصة حالته السياسية والمالية والزراعية في ذاك العهد . فرأينا ان نعرب للقراء اهم ما جاء فيها ونلخص لهم البقية . واليك تقرير الشيخ يزبك عن حملة حافظ باشا :

---

(١) ف ٢٠٠ ـ ٢٠٤ . راجع عن وصول الترتانا الى لبنان خ ٣١ ـ ٣٤

(٢) خ ٣٢

« بعد ان سافر الامير بشهرين[١] وصل باشا دمشق وصحبته اربعة عشر من الباشاوات، بينهم حسين باشا طرابلس، ابن الامير يوسف وصهر فخر الدين، فضلاً عن خمسة وسبعين سنجقاً وخمسة وثمانين الف مقاتل . توجهوا لمحاصرة قلعة الشقيف، ولبثوا امامها اربعة وثمانين يوماً دون ان ينالوا منها منالاً، لبسالة قائدها حسين طويل ومهارة ثمانية عشر جندياً فرنسوياً، من خدمة الامير، في ادارة المدفعية . فقد حطّموا مدافع العدو واضطروه الى رفع الحصار بعد ان خسر الفين وخمسمائة من رجاله . وكان الامير علي والدروز قد كبدوه في مواقع شتى ومعارك مجيدة خسارة نحو ثلاثة آلاف غيرهم . ولم يفقد اللبنانيون سوى خمسين من رجالهم .

« وحاول الباشا ايضاً محاصرة قلعة بانياس، ولما تحقق عجزه عن اخذها ارسل يقول الى حسين اليازجي قائدها « ان سلمتني مفاتيحها جعلتك أومباشي صفد » . فاجابه « لا اسلمها الا لصاحبها الامير فخر الدين، وان مات فلولده الامير علي » . ولما دخلها الامير علي بالف من رجاله وثلاثة آلاف من العرب[٢]، ارسل الباشا يقول لهذا الامير « ان خضعتَ للسلطان عفا عنك وجعلك مكان ابيك » . فاجابه « افضّل الموت على خيانة ابي . فافعل ما تشاء » . فحنق الباشا وعمد الى تخريب البلاد . واخذ يقطع الاشجار ويحرق القرى . ولما شاهد السكان منه هذه الافعال فكروا في مراضاته، وصار الاتفاق ان تقصد الست والدة الامير فخر الدين، البالغة من العمر زهاء السبعين، الى معسكره وتقدم له ثلاثمائة الف قرش، شرطَ ان يترك البلاد وشأنها . فرضي الباشا . فسلمته مئة وخمسين الفاً، ودفع اهالي البلاد البقية . وبقي من المبلغ عشرون الفاً فاخذ الباشا الوالدة معه رهينة الى دمشق[٣] . وكان في غزير خمسمائة من سكمان الامير للمحافظة عليها . ولما رأوا كثرة الجيوش القادمة وما تنزله في البلاد من الدمار تركها بعضهم وتفرق الباقون . فاستولى عليها حسين باشا . وقيل انه كان قد خبأ

---

(١) اقلع من صيدا في غرة شعبان ١٠٢٢ = ١٦ ايلول سنة ١٦١٣ (خ ١٩)

(٢) بقيادة عمرو شيخ المفارجه، الذي استمات في الدفاع عنه (خ ٢٧-٣١)

(٣) في السنة التالية دفع الامير يونس ولدها المبلغ مضاعفاً ؛ فاخذه الباشا ولم يطلق الوالدة . (خ ٣٥)

فيها مالاً قبل ان ينتزعها فخر الدين منه[١] .

« لم يذهب باشا دمشق الى صيدا ولا الى صور، ولا الى غير مكان. بل اكتفى بان يضع في صيدا صوباشياً مع عشرين نفراً، حتى يستوفي بقية المال الموعود به . وابقى حاكمها الحاج محمد بن ظافر والد زوجة الامير[٢] . وليس في صور سوى سكانها . وهكذا القول عن عكا . اما حصن بيروت فعاد الى باشا طرابلس كالسابق .

« والبلاد بانتظار اميرها . وقد انتدبني رعاياه مع رفقائي لنؤكد له ولاءنا، ونرجوه ان يعود الينا، فيستقبله الشعب بقلوب مفعمة حباً له . ونحن مستعدون لبذل حياتنا واموالنا محافظةً على عرشه وشخصه وانجاله المحروسين[٣] » .

٦ ـ **تقرير ماشنجي** ـ « الامير محبوب جداً من رعاياه لحلمه وعطفه عليهم، ومهاب من اعدائه، لانهم خبروا في عدة مواقع وحوادث بسالته واصالة رأيه . ومع انه اضطر هذه المرة الى الانسحاب امام الحملة العثمانية المتفوقة عليه عدداً، لم يفقد مكانته لدى الرأي العام . ترك البلاد بمعرفة اقاربه واصحاب شوراه . وجمع اصدقاءه وكبار دولته في مجلس عام واعلن لهم انه راكب البحر حتى تفوت الحملة الهائلة المجهزة عليه وعلى البلاد .

« مساحة مملكته اربعة ايام من كل جهة . وهي آهلة بالسكان ومؤلفة من جبال وسهول، اكثرها مشغول ومنصوب اشجاراً مثمرة، خاصة الزيتون والتوت لعمل الحرير . وفيها ايضاً المزروعات من الحبوب اللازمة لحاجة البلاد . وفي وسع اهلها استخراج كمية كبيرة من الخمر، الا انهم يجففون العنب ويأكلونه زبيباً، ويفضلون على الخمر الماء القراح . وعندهم ايضاً الارز، بيد ان وروده من الاسكندرية بكثرة واسعار متهاودة يحملهم على التراخي في زراعته .

---

(١) خ ١٩

(٢) خاصكيه، التي اصطحبها الامير معه الى تسكانا . ر ص ١٩٤

(٣) ف ٢٠٤ ـ ٢٠٧

اولاً : موارد الامير . « لم نتوصل الى معرفة دخل خزينته بالدقة . والظاهر من القرائن انه يزيد عن اربعمائة الف ريال سنوياً . ينفق معظمه على الجيش، وعلى ترميم القلاع، وعلى خاصته، وعلى هداياه الى الباب العالي . يستثمر لحسابه الخاص اراضي واسعة ويربي بالشركة عدداً وافراً من المواشي، وان نفقت فالخسارة تقع على شركائه لا عليه . وله ايضاً دخل من العشور العادية، وهي باهظة بالنسبة لبلادنا . فضلاً عن رسوم الجمارك والموانئ وبعض المناصب التي يبيعها لطالبيها . فان جمعنا هذا كله سوية زاد الدخل على الخرج كثيراً، وتوفر لديه سنوياً مبلغ لا يستهان بـه . والشائع ان خزنته مخبوءة في قلعة الشقيف، وان قسماً منها في قلعة بانياس. بيد ان في الامر سرّاً يصعب التثبت منه .

« ولفخر الدين اربع زوجات . الاولى درزية، وهي السلطانة، لانها والدة بكره الامير علي، الممتنع الان في قلعة بانياس. وهو في السادس عشرة من سنه ومتوسط القامة . والثانية اخت سيدي علي « واحبهن الى الامير لجمالها وصباها ومكانة اهلها ». والثالثة شقيقة باشا طرابلس . والرابعة ابنة احد السناجق من جيران الامير .

ثانياً : موانئه . « تبدأ مملكته بغزير، حيث تتصل بحدود ولايـة طرابلس . وتنتهي الى عكا، على حدود سنجقية حيفا . وعلى هذا الساحل المنبسط جنوباً بغرب اربعة مرافئ : بيروت وصيدا وصور وعكا .

« بيروت مدينة تجارية مزدحمة السكان . بيد انها غير منيعة، يسهل احتلالها، ان لم تدافع عنها الدساكر والقرى العديدة الغاصة بالسكان، الملتفة حولها .

« لم اذهب الى صيدا، لان السواحل بيد الاتراك . غير ان الذين زاروها اكدوا لي ان ميناءها قليل الماء، يسع زهاء خمسة عشر مركباً ضخماً، وان قلعتها قابلة للتحصين .

« وفي صور ميناء تحميه الصخور من الارياح الخارجية . وهو ايضاً قليل العمق، لكنه فسيح . وقد نُظف قسم منه من الرمال فحوى ثلاثين غراباً . تحصينه سهل، زهيد النفقة؛ لان هناك احجار جاهزة، ولا يصعب استخراج غيرها بقليل من العناء . وفي نظري ان المركز في غاية الاهمية، كما يتسنى لسموك التثبت بنظرة تلقيها عـلى الرسم الذي وضعه المهندس انطيونياتشي .

« لم اقصد ايضاً الى عكا . غير ان مركباً من مراكبنا تجول في السواحل في اثناء رحلتنا داخل بلاد الامير، فجاءنا عن هذه الموانئ الثلاثة بالمعلومات المدونة اعلاه .

ثالثاً : القلاع . « تبعد قلعة نيحا عن صيدا خمسة عشر ميلاً . وهي في قلب البلاد واقفة على صخر علوه ثلثمائة ذراع، حُفرت في بطنه مآوي العساكر والمخازن وغيرها من المنافع . شاهدت فيها زهاء مئة جندي، لديهم من المؤن ما يكفيهم اكثر من ثلاث سنين . وفيها كثير من أثاث الامير . وهي منيعة، وافرة الماء . ليس فيها من البناء سوى السور الذي يحيط بها المخرورق بالمزاغل . اما المدخل فثابت خالٍ من جسر متحرك، يُرفع ليُقفل عليه . اذا تمكن العدو من نصب مدفعية ازاءها اخذها بسهولة، لانها ضيقة جداً، ليس لها ميدان للمدفعية، ولا حصن احتياطي يُلجأ اليه عند الحاجة . كما تتحقق سموك من الرسم المرفق هنا .

« اما قلعة الشقيف فمنتصبة على صخر شاهق، ومبنية بالحجر الاصم على شكل زاوية . ارتفاعها اربعمائة ذراع ودائرتها اربعمائة وخمسون . لها ابراج مربعة تسع خمسمائة جندي . وفيها من الزاد ما يفيض عن ثلاث سنين . ناهيك عن صهاريج المياه وآبار الزيت . وجدنا فيها من اثاث الامير الشيء الكثير . والشائع انه اخفى فيها كمية كبيرة من المال . وهي من الخارج في غاية المناعة . وقد حفرت لها خنادق عميقة امام المواقع السهلة المنال . وفي عرفي انه لا ينقصها سوى المدفعية .

« مركز قلعة بانياس بديع جداً . شُيدت على صخر زلق كثير الانحدار . تحميها ابراج كبيرة من ثلاث جهات، ومن الجهة الرابعة حصن داخلي في غاية المناعة والقوة، لولا اشراف الجبل عليه . تشغل مساحة الفين ومائتي قدم، وتكثر فيها المزحلقات والابراج الصغيرة والنصف الابراج المبنية بشكل الآذان، وهي تبلغ الثلاثين، وقد اخترقتها المزاغل . ليس لها مدخل سوى باب واحد علوه ثلاثون ذراعاً . بيد انه خالٍ من جسر متحرك يحميه . ومجمل القول ان القلعة مبنية بسخاء وفخامة . تتوفر فيها المساكن والمخازن الملأى بشتى المأكولات، التي تكفيها ثلاث سنين واكثر . فيها ٢٦ صهريجاً للماء وبعض الاسلحة مع قليل من اثاث الامير . وجدت فيها زهاء سبعمائة جندي .

« وقد وضع انطونياشي رسوماً لكل هـذه القلاع والموانئ، غير انه لم يذهب الى ....[١] نزولاً على اشارة الامـير يونس، لئلا يقع في قبضة الاعداء فيحملونه الى باشا دمشق، حيث الوالدة محجوزة كرهينة . فان عرفوا بمهمتنا اساؤوا معاملتها .

« اما المعلم ماريوتو طوزيني[٢] فقد بحث عبثاً عن الاحجار ذات القيمة . بيد انه جلب معه بعضها تبريراً لنفسه . لم نتمكن من احصاء عـدد رعايا الامير لان البلاد قائمة قاعدة، ومنهم الهارب ومنهم الاسير . وظهر لنا ان الامير قبل هذه النكبة كان له من الجنود عشرون الفاً . بينهم ثلاثة آلاف رتب لكل منهم اربعة ريالات في الشهر خلاف النفقة . وقد ترك لهم قبل سفره مـا يقوم بتسديد رواتبهم ثلاث سنين متوالية .

« ومما لاحظناه عن اهل هذه البلاد ان كلاً منهم يسعى لمصلحتـه . وهم ذوو خيلاء وجلد، بطيئون في الاقدام على امر . والعدالة هنا على حالتها الفطرية . وكل المشاكل تسوّى بالمال . وفي هذه البلاد عدد كبير من المسيحيين، يتوسلون الى سموك ان ترمقهم بعين العطف .

« هذا ما رأيت تدوينه . واحيل في بقية المعلومات على تقرير البيرقدار سانتي، الذي وقف مثلي على كل شيء[٣] » .

٧ ـ **تقرير سانتي** ـ هو اهم التقارير الثلاثة، لما حواه من المعلومات الدقيقة والارقام الاحصائية عن حالة لبنان الاقتصادية في السنة ١٦١٤ . اما القسم التاريخي فقد خبط فيه خبط عشواء، مما حدانا على الايجاز في تعريبه . وقد تحامل على الامير تحاملاً ظهر بطلانه من تناقضه في الاقوال[٤] . وضع تقريره في السنة ١٦١٤، بيد انه في السنة ١٦٢٤، نزولاً على اوامر مجلس الوصاية التسكاني، اعاد كتابته مع بعض الزيادات التافهة، التي يسهل تمييزها . وهو النص الواصل الينا .

---

(١) النقط في الاصل وهي تدل على سهو الكاتب عن اسم القلعة

(٢) Mariotto Tusini

(٣) ف ٢٠٨ ـ ٢١١

(٤) ر ص ٢٢ ـ ٢٥

اولاً : الدروز . « هم بقايا الصليبيين، الذين افتتحوا الاراضي المقدسة بقيادة غودفريد بويّون . ولما خرجت من أيديهم بعد اربع وثمانين سنة لجأوا الى الجبال واختلطوا بالمسلمين، فنسوا دين آبائهم، واعتنقوا ديانة ليست من الاسلام بشيء ولا من النصرانية[1] . فهم لا يمتنعون عن اي طعام، ويستحلون ما تطيب اليه نفوسهم، احراراً من عقال الضمير . يتزلون القسم المنحصر بين البحر الابيض وجبلي لبنان والكرمل .

« كان يتولاهم خمسة امراء ينتمون الى سلالة غودفريد بويّون، ملك اورشليم، ويؤدون للسلطان جزية لقاء رسوم البضائع المارة باراضيهم بين موانئ البحر الابيض ودمشق، وغيرها من البلدان . وفي السنة ١٥٨٥ تآمر ثلاثة من هؤلاء الامراء على ابن معن[2]، لانه كان اقواهم . فصوّروه لابرهيم باشا الوزير كعاصٍ على السلطان . ولما طلبه للحضور اليّ، لان الاتراك كانوا قتلوا اباه بعد ان منحوه الامان[3] . واكتفى بارسال كمية من الاسلحة والحرائر على سبيل الهدية ومبلغ الف قرش دفعه على مرتين .

« غير ان الباشا لم يكتفِ بذلك واستباح بلاده نهباً وحرقاً وخراباً . فلجأ الامير الى الجبال حيناً، ثم انقضّ بغتة على مؤخرة الجيش العثماني فمزقه . وهو ما زاد في غضب الباشا وحمله على الانتقام من رعايا الامير بفظاعة ما بعدها فظاعة . ورحل بعد ان ترك على البلاد حاكماً برتبة باشا يدعى الامير علي ابن الحرفوش . وعاد الى الاستانة باسطول مؤلف من عشرين غراباً مسلحاً، كانت راسيةً في بيروت، واستصحب معه بقية الامراء اللبنانيين . بيد ان السلطان اعادهم الى مقاطعاتهم .

« فخرج ابن معن من مخبإه وجمع رجاله وضم اليهم آخرين، واستعاد ملكه

---

(١) ظهر الدروز قبل نزوح الصليبيين عن الشرق، اي قبل اواخر القرن الثالث عشر . وقد وصفهم الرحالة اليهودي ربّي بنيامين، الذي توفي في السنة ١١٧٣ (راجع عنهم المحبي ٣ : ٦٨ و ٤ : ٥٠٣) . بيد ان هذه الخرافة، التي ايدها فخر الدين، سابقة لعهده . فقد وردت في التقرير، الذي قدمه الاب اليانو الى البابا سيكستوس الخامس في السنة ١٥٨٦، اي قبل تولي الامير مقاطعة الشوف بست سنوات . (راجع ف ٢١٢ حاشية ١)

(٢) يعني قرقماس والد فخر الدين الثاني

(٣) لم تذكر التواريخ ان فخر الدين الاول مات غدرًا

ووسع حدوده . وكان القسم الاكبر منه مؤلفاً من فنيقية القديمة . ومات بعد ذلك موتاً حامت حوله الشبهات . قال بعضهم انه شرب السم لما رأى الاتراك يعيدون الكرة عليه . وزعم البعض الآخر ان ولده فخر الدين، الذي نجّاه، ابّان الكارثة، الاميرُ منذر، صاحب بيروت وصديق والده، دسّ له السم طمعاً في الملك[1] . وغيرهم ارتأى ان الاتراك اماتوه مسموماً[2] .

ثانياً : ولاية فخر الدين . « لما تسلم فخر الدين الحكم جمع جيشاً قوياً وانتزع طرابلس وغزير من يوسف سيفا، الذي حاول عبثاً استردادهما . لان الامير عثر في غزير على بعض النقود، فظن ان فيها مخبأً . وقد تزوج ابنة المذكور قسراً وزف ابنته الى ابنه حسين . ثم تحول على علي باشا ابن الحرفوش فسلخ عنه بعلبك[3] . وبعد ان نهب بعضاً من قراه حاصر دمشق بجمع غفير من الدروز والعرب والجيران، فالقى الرعب في قلوب سكانها، وحملهم على افتداء انفسهم بمبلغ طائل من المال . ولما عاد عنهم ركب على بقية الامراء الدروز وسلبهم مقاطعاتهم .

« وما جرأه على هذه الاعمال محالفته لفردناندو الاول، الذي جهز الى تلك البحار اسطولاً من الغلايين المسلحة نازل مراراً العمارة العثمانية وتفوّق عليها . وبات يجوب البحار العثمانية كسيدها . واصبح اسمه مجيداً مهاباً عند تلك الشعوب، فاعتبرته اقوى امير مسيحي في البحر .

« ولما امن فخر الدين على نفسه من جهة البحر حصر همه في فتوح البر . وكان يفتح موانئه للاسطول التسكاني فيلجأ اليها ويتموّن منها . وانتعشت الآمال البعيدة في صدر الغراندوق واخذ يعلل النفس ان يتوصل يوماً، بمساعدة هذا الامير الباسل،

---

(١) ذكر الدويهي ان الامير قرقماس هرب الى مغارة الشوف ومات عن ولدين (د ١٧٨) وكان فخر الدين مختبئاً في كسروان ولم يتجاوز الثانية عشرة

(٢) ف ٢١١ — ٢١٤

(٣) هذا ينطبق بالاحرى على منصور ابن الفريخ . فقد قتله مراد باشا في السنة ١٥٩٤، نزولاً على الحاح فخر الدين، وسلم بعلبك الى ابن الحرفوش حليفه (ر ص ٩٧ و٩٨) . ولم يكن الامير قد تجاوز الثانية والعشرين فأتى له بنت يزوجها الى ابن سيفا

صاحب المكانة العالية في الشرق، الى التقدم في الاراضي المقدسة، وتثبيت قدمه فيها، وتنفيذ مشروع خطير، يعود بالفائدة الجلى على النصرانية جمعاء .

« ولهذا الغرض كان يموّن الامير بالاسلحة الحديثة، التي جعلت له التفوق على اعدائه وسمحت له ان يزيد عدد رجاله واتباعه . وقد رأيتُ بأم عيني بعضاً من هذه الاسلحة في خزائنه . وكان البابا اكليمنضوس الثامن مطلعاً على هذه العلاقات ومشجعاً لها . فوجد احمد باشا الفرصة سانحة ووشى به الى السلطان وجسّم التهمة، وأيده في شكواه ابن سيفا وغيره من الامراء . مما حمل السلطان على ان يكلفه تجهيز حملة قوية على الامير يجمع رجالها من سوريا ومن كل البلدان الواقعة بينها وبين الاستانة . ولما رأى الامير ان الحملة فوق قواه جمع مجلس شوراه وافهمهم انه قاصد الى اوربا لاستنجاد امرائها . ثم اجتمع باخصائه وأسر اليهم انه صمم النية على الالتجاء الى سمو الغراندوق، للصداقة التي كانت بينه وبين والده .

« وبناء على ذلك سلم حكم البلاد الى والدته، والقلاع الى قائده حسن، والجيش الى اخيه يونس، وابنه الى العرب حلفائه . وجهز القلاع بالمؤن والذخائر، ما يكفيها ثلاث سنين . ووضع فيها زوجاته، وطمر في جوفها امواله . وشد مسافراً الى تسكانا، حيث استقبله الغراندوق قزما الثاني بمنتهى الحفاوة[1] . ورغب الغراندوق في التثبت من كلام الامير ومعرفة حقيقة الحال في بلاده بعد غيابه عنها فأوفدني انا والفارس ماشنجي وقيصر انطونياشي بمركب مسلح الى لبنان . ولما بلغنا بيروت وجدنا السواحل كلها في قبضة الاتراك . فانزلنا خفية رجالاً اعلموا اصحاب القلاع بمجيئنا وبالاوامر التي زودنا بها الامير فخر الدين نفسه . فبعث الينا اخوه الامير يونس بخيول ورجال اقلّونا الى دير القمر . ومن هناك سهل علينا التوغل داخل البلاد وزيارة القلاع برفقة خيالة ومشاة . لان البلاد كانت مضطربة مشبوهة . لاسيما ان غايتنا كانت ان نعقد معاهدة مع الامير . وقد خُولنا الحرية الكاملة في مشاهدة كل ما تهمنا مشاهدته، وادلوا الينا باخلاص وصدق بكل المعلومات التي رغبنا في معرفتها .

---

(١) قلنا ان التقرير وضع سنة ١٦١٤ . بيد ان النص الذي وصل الينا هو من السنة ١٦٢٤، قدمه سانتي الى مجلس الوصاية على فردناندو الثاني

لان فخر الدين لم يسمح لاخيه ولا لغيرنا بدخول القلاع[١] .

ثالثاً : حملة احمد باشا الحافظ . « وقبل ولوج الحديث عن بلاد الامير لا بد لنا من الاشارة الى حملة احمد باشا عليها . كانت مؤلفة من خمسين الف مقاتل واثنين وثلاثين من الباشاوات، وتسع قطع من المدفعية . فقصد احمد باشا في بادئ الامر محاصرة قلعة بانياس فلم يقوَ عليها . فتحوَّل الى قلعة الشقيف، ظنًّا منه انها اقل مناعة، وان خزنة الامير مخبوءة فيها . فهجمت حامية قلعة بانياس على مؤخرة جيشه وضعضعته .

« ولما بلغ قلعة الشقيف احاط بها من كل جانب . وهدم بعض البيوت حولها وردم الخندق بانقاضها . ونصب على القلعة ثلاث مدفعيات، وبنى مصطبة عالية تشرف على داخلها . وتمكن من الاستيلاء على برج، كان يحميه خمسون جنديًّا، انهار لاشتعال البارود فيه، فنجا منهم سبعة وعادوا الى القلعة . ولم يكن لدى الباشا من يحسن تصويب المدافع فلم تصب اسوار القلعة بسوء . وكانت في داخل القلعة ثلاث قطع من المدافع، لم يجرؤ احد على استعمالها . بيد ان بعض الفرنسويين من اسرى الامير عمدوا الى استخدامها واداروها بمهارة ادهشت الجميع وانزلت بالعدو خسائر فادحة . لاسيما انهم كانوا يرمونه بالنيران الاصطناعية فيلقون الرعب بين جنوده لغرابتها . وقد حاول احمد باشا عبثاً استمالة قائد القلعة وأوهمه ان الامير عدل نهائيًّا عن الرجوع الى بلاده . فاجابه : ساكون حينئذ صاحب القلعة والخزنة .

« وفي هذه الاثناء قصدت والدة الامير من بانياس الى معسكر الباشا وأنبته بجرأة على تعمده هلاك رعايا السلطان وخراب البلاد، التي تؤدي له الجزية . وكان قد شعر بعجزه عن اخذ القلاع وداهمه البرد والمطر، فاتفق معها على مبلغ كبير . وكان ابن باشا طرابلس قد خرّب بعض القرى، فاستدعاه ووبخه وغرمه مبلغاً من المال . بيد انه اعاد الى والده بيروت وغزير . وترك بعض الحامية في المدن ورجع الى دمشق . وبعد ذلك علمنا ان المفتي الاكبر توسط لفخر الدين وارجعه الى منصبه، فعاد الى السطو على جيرانه والتوسع على حسابهم[٢] .

---

(١) ف ٢١٤ - ٢١٦

(٢) ف ٢١٦ - ٢١٨

رابعاً : مملكة الامير . « تضم مملكة الامير فنيقية القديمة والجليل الاعلى . وتنبسط من حدود ولاية طرابلس حتى حيفا، مسافة مئة وعشرين ميلاً . فالقسم القبلي منها طوله خمسة وعشرون ميلاً وهو ينحرف نحو الغرب حتى يجتاز الاردن ويضم لبنان الشرقي وقسماً من جبل لبنان، مقترباً من دمشق مسافة نصف يوم، وقافلاً بظهر السلسلة الجبلية حدود مملكة الامير من هذه الجهة .

« السواحل كلها آهلة بالسكان ومزروعة . اهم مدنها بيروت وصيدا وقيصرية وعكا . بيروت وصيدا هما ثغرا دمشق، يسع كل منهما من السفن عدداً لا يستهان به . في داخل البلاد قصور كثيرة دون اسوار، وثلاث قلاع . مركز الامير دير القمر، المعروفة عندنا بعين دارا . وهي دسكرة كبيرة، غير انها مكشوفة للعدو، تبعد ثلاثة اميال عن البحر، حيث يصب نهر الدامور .

« والقسم الجبلي من بلاد الامير مأهول اكثر من سواه، لانه امين من هجوم الاتراك الفجائي، لاسيما الخيالة . يستقي من عدة انهر ويُخرج الحرير الجيد والزيت والعنب، الذي يأكلونه مجففاً . بقية البلاد سهول او مرتفعات ظريفة عارية من الاشجار، تلائم حركات الخيالة . والاراضي غنية بانواع الحبوب والعلف الصالح لكل اصناف الحيوانات . الخيول نادرة، يشترونها من العرب . العسل والشمع متوفران . المعادن قليلة، او بالاحرى لا يكترثون لاستخراجها . في السواحل ينبت القطن وكل ما يشتهيه الانسان لطعامه . المناخ معتدل في كل المنطقة، حتى انك في الشتاء تجد على حافة الثلوج النباتات والزهور نضرة خضرة . السكان مطبوعون على البخل والعجرفة والعناد؛ لا يُركن اليهم كثيراً . بيد انهم ميالون الى الحرب، صبورون على التعب، يحبون الامير ويهابونه .

« اما جيران الامير فمن جهة الشمال باشا طرابلس عدوه . ومع ان بلاده آهلة بالدروز[1]، فالسلطان يعين واليها رأساً . مدخل مملكة الامير من هذه الجهة ضيق وعر . من جهة الغرب يجاوره ابن فريخ الدرزي[2]، وهو امير لا حول له ولا مكانة

---

(١) هذا غير صحيح

(٢) يعني ابن فروخ؛ وهو، على ما نعلم، غير درزي

تذكر . تحدّ بلاده من الشرق ولاية دمشق وهي من هذه الجهة مكشوفة لا يسعه صدّ الغازي عنها . على حدوده القبلية يتزل حلفاؤه العرب وغيرهم من الامراء الثانويين كسنجق غزه على الساحل، وسنجق القدس، الذي يعيّنه باشا دمشق . وهما يضايقان الامير من هذه الجهة . غير انه لا يهابهم لان حلفاءه العرب النازلين وراء الاردن، واصدقاءه الدروز هم اصحاب معظم البلاد التابعة لسنجقية القدس التي تصبح محصورة بين هؤلاء والامير . حتى ان الباب العالي لا يسعه انجاد هذه السنجقية الا من جهة البحر . وان عنّ له مهاجمة الامير من جهة دمشق اصطدم بقلاعه المصطفة على قمم لبنان الشرقية[1] .

خامساً : جيشه . « ان قوة الجيش راجعة الى بسالة الامير، وما اكتسبه من الخبرة والاتباع في الحروب العديدة التي خاضها، اكثر منها الى وفرة الجنود وحسن نظامهم . ناهيك عن بأس شعبه، وجبانة جيرانه . في وسعه، اذا بذل الجهد، ان يجنّد من رعاياه عشرة آلاف راجل وخمسمائة فارس . فالرجالة يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال . يمشون وراء الراية بلا ترتيب، ويحاربون بلا نظام . اما الفارس فيلبس ثقيلاً . يلتحف بجبة واسعة ويحمل البندقية ذات القداحة، لان ليس لديهم سواها، ام بارودة هندية تبلغ قصبتها ستة اقدام طولاً، خفيفة وصلبة، وفي رأسها سن من حديد . يعلّق الفارس السيف في جنبه، والدبوس في السرج، ويحمل ترساً محاكاً من خيوط حريرية دقيقة، يتلقى به السهم، وفي وسط هذا الترس قرص من نحاس يردّ به ضربات السيف . يتطون الخيول العربية الغالية الثمن، الصبورة على التعب، وذات السرعة المدهشة . ومع ان طعامها العشب وحفنة من الشعير، فهي تعمل النهار كله بلا كلل ولا ملل . يسيرون جماعات بلا بوق . ويحاربون منفردين بين كرّ وفرّ . وكل الامر في سرعة الحصان وخفة حركاته .

« اذا عسكروا لا ينصبون المتاريس، ولا ينشرون الخيم، او ما شاكلها وقاية من لفحات الشمس ام لذعات البرد وهطول الامطار . حتى انهم لا يستخدمون

---

(١) ف ٢١٨ و٢١٩

القش اتقاء للرطوبة . عندهم من الحيوانات لحمل الاثقال وجرّ المدافع العدد الوافر . اما المدافع فنادرة، ويجهلون استعمالها . يحمل كل جندي على كتفه زاد ثلاثة او اربعة ايام . وعليه ان يقتني سلاحه من ماله الخاص . والاسلحة عندهم قليلة، لان ليس لهم معامل لصنع البنادق او البارود . بل يستوردون البنادق من تركيا والبارود من انكلترا . لا يملك الامير قوة بحرية بتاتاً، لان شعبه منصرف عن الملاحة . كبار وزرائه وقواده اتراك[1] . وهكذا قل عن حامية القلاع . وهو يثق بهم اكثر من رعاياه[2] .

سادساً : قلاعه . « وللدفاع عن مملكته لديه ثلاث قلاع : بانياس، والشقيف ونيحا .

« قلعة بانياس على حدود ولاية دمشق . مبنية بسخاء على الطراز القديم . منيعة، لانها قائمة على قمة جبل زلق من ثلاث جهاته . وعلى بعد ميل، من جهة الجنوب، جبل آخر عالٍ يتسلط عليها . ناهيك ان طرفه الشرقي، بالرغم من انحداره، يؤلف لساناً من الارض يسهّل على العدو الدنو من القلعة ونصب المتاريس امامها . دائرتها الف خطوة، لا ساحة لها . مدفعيتها قليلة ومن النوع الصغير . آبارها واسعة، ملأى بالقمح والزيت والارزّ والملح وغير ذلك من مأكولاتهم . يقيم فيها قائد الامير العام ووالدته السلطانة . يقال انها تحوي قسماً من خزنته، فضلاً عن الاثاث . حاميتها الف جندي .

« قلعة الشقيف تبعد عن الساحل ثمانية عشر ميلاً، منتصبة على جبل صخري مزحلق من كل جهاته الا من جهة واحدة ضيقة جداً يسهل صدّ العدو عنها . تشبه ببنائها قلعة بانياس، لكنها اصغر منها . لا يتطلب تحصينها سوى نفقة زهيدة . حاميتها ثلثمائة جندي، عندهم من المؤونة الكفاية كما في قلعة بانياس . لها قائد خاص وفيها احدى نساء الامير . يقال ان قسماً كبيراً من خزنته مدفون فيها في بطن الارض، حسب عوائدهم .

« اما قلعة نيحا فمنقورة على شكل مغارة في بطن جبل كثير الانزلاق . يستحيل دخولها على غير الطيور . فللوصول اليها عليك ان تمر فوق الواح من الخشب موضوعة

---

(١) يعني السكمان

(٢) ف ٢١٩ و٢٢٠

بين صخر وآخر وتحت قدميك هوة عظيمة هائلة . ومـا جدرانها سوى حواجز تقي المارة من السقوط . فيستحيل اخذها باي طريقة كانت . تقيم فيها احدى نساء الامير ويحميها مئة جندي . فيها المياه الجارية والمؤن الكافية، كما في القلعتين السابقتين . فضلًا عن اثاث فاخر للامير .

« اما العرب اصدقاء الامير ففي وسعهم ان يسعفوه بعشرة آلاف مقاتل، أغلبهم خيّالة مسلحون بالحراب والقسي والسيوف العريضة النصـال . يجيدون مباغتة العدو اكثر من الصمود امامـه في ميدان حرب منظمة ؛ لاسيما اذا كان مسلّحاً بالبنادق . يميلون الى الغزو والقتل والنهب . مساكنهم خيم تؤلف مدينة متحركة، ينقلونها اينما شاؤوا، وفقاً للفصول والظروف . ولهم بعض قرى في مقاطعة اورشليم . فان طُردوا منها هجروها، ثم عادوا اليها في اول فرصة .

سابعاً : الدخل . « توصلًا الى معرفة دخل الامير علينا ان نلاحظ اولاً ان كل الاراضي الزراعية ملكه، يسلمها الى الفلاحين شرطَ ان يعطوه سنوياً عن كل مئـة زيتونة خمسة عشر ريالاً، وعن كل مئة توتة ثلاثة ريالات، والثلث من القطن والقمح والقطاني . وهو يجني لحسابه فضـلًا عن ذلك كمية وافرة من الحرير والقطن . كل هذه المحصولات برسم التصدير لانهم لا يعرفون من الصنائع سوى الزراعة .

« يتاجر في بلاده الفرنسويون والانكليز والاتراك . يبادلون محصولات البلاد بالاقمشة والاجواخ والبارود . البقر والجاموس والجمال والمعزى وافرة ؛ غير ان جلودها للامير . واكثرها ملكه؛ يسلمها الى الفلاحين ليربوها بالشركة . فان نفقت فخسارتها تقع عليهم لا عليه . وهو لا يسمح لاحد ان يقتني اكثر من ثلاثة ازواج بقر .

« وله ايضاً رسوم المراكب . يتقاضى عن كل منها خمسة وعشرين قرشاً رسم ميناء، وربع سكوت[1] عن كل عشر ليبرات من الحرير والقطن . هذا في ما خص البضائع التي تباع في مملكته، وتخزّن فيها برسم البيع . لان البضائع المصدّرة منها الى دمشق، او الواردة من هذه المدينة الى الموانئ اللبنانية تتحمّل رسوماً باهظة . وهو فوق ذلك

---

(١) السكوت كان يساوي قرشاً وربع القرش

يفرض رسوماً وضرائب وبلصات شتى، بحجة جمع الجزية للسلطان، بيد انه يحتفظ بها لنفسه .

« ومن المعلومات التي توصلت اليها تمكنتُ من تحديد واردات الامير السنوية كما يلي :

٨٠	الف قرش من الحرير والتوت
٣٠	» » » القطن
٥٠	» » » الخمر والزيت
٣٠	» » » القمح والقطاني
١٥	» » » المواشي
٢٠	» » » الرسوم
٧٠	» » » الضرائب
٢٩٥	الجملة مائتان وخمسة وتسعون الفاً

« ولا يدخل في هذا الباب ما يرد لبيته وحاشيته من الهدايا، بل ما يستوفيه بنفسه او يبيعه من رعاياه .

ثامناً : الخرج. « معظم خرجه ينفق على رواتب الف وخمسمائة جندي تحت السلاح ومئة وخمسين فارساً، يتقاضى كل منهم ثلاثة سكوت في الشهر وجزءا من الطعام . ويقدم الامير فوق ذلك الحصان والسائس، والطعام لعائلات الجنود، لاسيما اذا كانوا من حامية القلاع . ورواتب القواد ضخمة . هذه النفقات تقدر بثمانين الفاً .

« اما نفقات اسرته وحاشيته فتبلغ مئة الف سنوياً، يذهب اكثرها على بسط مائدة عامة من الاطعمة العادية كل صباح لكل القادمين والعابرين . واذا نهض الفوج حل الاخر محله . يتصدر الامير هذه المائدة بنفسه حتى آخرها، دون ان يتحدث الى ضيوفه. وهذه المجاملة تحببه الى رعاياه . بيد ان ما يخرج من يده نقداً لنفقات هذه المائدة قليل لكثرة الهدايا التي ترد اليه من شتى المأكولات .

« تبلغ الجزية التي يؤديها سنوياً للسلطان سبعين الفاً، غير انه لا يسددها الا نادراً[1]،

(١) هذا غير صحيح، لان سياسته كانت ارضاء الباب العالي بالمال فضلاً عن الهدايا، واحياناً كان يسدّد المال سلفاً خ ١٧ و ٩١ رص ١١٨

فيتسنى له سنوياً ان يودع خزنته زهاء مئة وخمسين الفاً . ولهذه الخزنة شهرة بعيدة، لان الاتراك لم يضايقوه مدة خمسة وعشرين سنة[١] . فضلاً عما غنمه من البلاد التي اجتاحها ونهبها، وما آل اليه من وراثة احد اخواله، الذي ترك له كمية وافرة من النقود.

تاسعاً : اخلاقه واسرته . « يعتبره الجميع اميراً ذا بأس واقدام، للحروب المتواصلة التي اشهرها على السلطان . ومع انه ظالم، يسلب رعاياه ما جمعوه بعرق الجبين، فهم يحبونه ويهابونه لدعته، فضلاً عن حبه لجنوده، الذين يتيح لهم الفرص للغزو والمكسب؛ وقد رفع مكانتهم بين الجيران . وهم بدورهم يعتبرونه ويخافونه، لانه يعاقب بصرامة وباحكام عسكرية الجرائم والمخالفات التي يرتكبونها . ميال الى الحرب والطعان، بيد انه بخيل، قاسٍ، دنيء . قامته متوسطة نازعة الى القصر . اسمر اللون . اسود العينين والشعر . قوي العضل . صبور على التعب والشدائد . وما زال في ريعان الكهولة .

« نظام العدالة في مملكته باقٍ على الفطرة الاولى . تطبّق الاحكام على العادات الدارجة في البلاد، وتجري ايضاً على هوى الامير وميوله . لا يستدعي مجلس شوراه في الامور العادية، بل يقرر ما يعنّ له مستلهماً رأيه او شور والدته . وهي في ايام السلم اكثر منه مكانة واحتراماً . لها ميل شديد الى النصرانية . وقيل انها تعبد الصليب، وقد تنبأت لولدها بفوز عظيم يحرزه بمؤازرة المسيحيين . والشعب ينزلها منزلة الانبياء . وهم يلقبون بالنبي الشخص البارز، الذي يعيش بالصلاح والعبادة . اذا كانت الان في قيد الحياة قد تبلغ السبعين[٢] .

« اما وحيده الامير علي فميّال مثله الى الحرب واعمال الفروسية . وله بعض المنزلة عند رعاياه . لكنه ليس على شيء من الذكاء . وهو مثله قصير القامة . تلاحظ عيباً في احدى كتفيه . وقد يبلغ الان السادسة والعشرين . اما الامير يونس اخو فخر الدين فليس على جانب كبير من البأس والمكانة .

« ولفخر الدين اربع زوجات، لكل منهن منزل خاص يزورها فيه . السلطانة والدة

---

(١) ١٥٩٢-١٦١٣

(٢) يقول عنها الشيخ يزبك في السنة ١٦١٤ انها في السبعين . ر ص ٢٠١

الامير علي هي بنت الامير يوسف، الذي سلبه فخر الدين ولايته وقتل اخاه . والثانية ابنة باشا طرابلس[١] . والثالثة كريمة احد الدروز جيرانه . والاخيرة هي التي اصطحبها معه الى تسكانا ولها الافضلية على غيرها . اخوها احد كبار دولته . خدمه عبيد يبتاعهم صغاراً في اسواق الاستانة، اغلبهم من الروس والهنغاريين، فيختنهم ويستخدمهم . واذا كبروا ازوجهم من جواري نسائه . بينما يشتري غيرهم زوجته بالمال . وقد يقلدهم بعض الوظائف، ويعينهم حكاماً على البلاد، واحياناً يكلفهم مهمات خطيرة.

« ليس للنصارى القاطنين في هذه الجهات حظ في مناصب الدولة وادارتها، بل يشتغلون في الزراعة . وهم اذلاء، فقراء . واليهود ارقى منهم منزلة وثروة[٢] . »

---

(١) هو يوسف باشا سيفا نفسه . وقد زف الى فخر الدين ابنة الامير علي ابن اخيه . ر ص ١٠٢

(٢) ف ٢١١ – ٢٢٤، وقد الحقنا التقرير برسم لمدينة صور، وضع في عهد البعثة فراجعه في ف ٢٢٤-٢٢٦

الفصل الرابع

بعثة الغليونين

١ - **تحرير الغليونين** - هذه المعلومات، التي تلقاها قزما الثاني من رجال البعثة عن مركز لبنان الحربي الممتاز، وموقف رعايا الامير من الثبات على ولائه، وصمود قلاعه امام حصار الحملة العثمانية الهائلة، وتفوّق جنوده عليها، شجعته على القيام وحده بمشروع اعادته الى مملكته والاستعانة به على استرداد الاراضي المقدسة، وكسر شوكة آل عثمان .

وفي هذه الغضون وردت اليه من حلب وطرابلس والاستانة رسائل سرّية تنبئ بتخوف الدولة العثمانية من حملة يعدّها الامراء المسيحيون ويقودها فخر الدين لاحتلال الشواطئ اللبنانية والزحف منها على القدس ودمشق، فاسرعت في اخراج اسطولها المؤلف من تسعين غراباً، قبل ان يكتمل تجهيزه، واصدرت الاوامر الى والي دمشق وحلب ليتعاونا مع الاسطول على صدّ هذه الحملة .

اولاً : ما عرضه الغراندوق على الامير . ففي يوم الاثنين الواقع في ١٤ نيسان السنة ١٦١٤، اي بعد رجوع خبراء البعثة باربعة ايام، انتدب الغراندوق اربعة من كبار الدولة ليفاوضوا الامير في مشروع الحملة . فقابلوه في مدينة پيزا، وبصحبته الحاج كيوان مستشاره، واخبروه ان الغراندوق، بعد ان فاز بالمعلومات اللازمة عن حالة مملكته وموقف رعاياه، اوفدهم لمعرفة ما يرغب في طلبه من سموه . فاجابهم الامير على الفور ان الوقت اللازم للحملة اصبح ضيقاً . وجلّ ما يفكر فيه الان هو الركوب وحده الى لبنان لتخليص بعض ذويه ومقتنياته وتشجيع رعاياه .

فعادوا في اليوم التالي وقالوا له : لما كان مولانا راغباً في ان يساعدك بكل ما في وسعه قد امرنا باعادة السؤال عليك لمعرفة رغباتك كلها، لعلنا باغتنائك امس بالسؤال وانت على غير استعداد . فكرر لهم الامير انه لا يرغب الا في تجهيز المراكب باقرب

وقت، ليتسنى له الذهاب والاياب قبل خروج الاسطول العثماني، لا خوفاً على نفسه، بل على رجال الغراندوق واغربته . فهو يفضل فقد الحياة على المجازفة بشعرة واحدة من احقر رعايا سموه . ولما سألوه عن طريقة الاسراع في تجهيز الحملة اجاب : لم يعد الوقت هذه السنة متسعاً لحملة عامة يقوم بها الامراء المسيحيون، اذا اتفقت كلمتهم . وان لم تتفق اشور على سموه بألّا يتعرض وحده للقوات العثمانية العظيمة . وجلّ ما يمكن عمله الآن الركوب وحدي الى لبنان بالاغربة الاربعة الراسية في ليڤورنو، لان انتظار عودة الغليونين من اسبانيا يذهب بالوقت القصير سدى .

فرجعوا في السادس عشر من نيسان المذكور وقالوا له : لقد اطلعنا مولانا على رغباتك، فاظهر تمام الاستعداد لتلبيتها وعمل كل ما في وسعه لمرضاتك . ولما كان الوقت غير كافٍ لجمع كلمة الامراء المسيحيين، وقد خرج من الاسطول العثماني عشرون غراباً، وستلحقها غيرها في القريب العاجل، فضلًا عن الاغربة المكلفة خفر السواحل، فقد امسى سفر الاغربة الاربعة معرضاً لخطر كبير . ناهيك عن ان تجهيزها يتطلب وقتاً طويلًا . فهذه الاعتبارات حدت سموه على ان يضع تحت تصرفك الغليونين الكبيرين، اللذين وصلا امس . وهما يوفران لك الراحة في السفر والامان على حياتك، التي تهمه اكثر من خسارة الاغربة . لان في استطاعتهما ان يردا عنك ليس الاغربة العشرين فحسب، بل خمسين غراباً وعمارة كاملة .

فسأل المندوبين اني الامكان ان يرافق الغليونين غراب ام اكثر . فاجابوه ان سير الغلايين غير سير الاغربة . لان هذه تضطر الى محاذاة الشاطئ والتموين من الماء كل عشرة ايام . واذا ارسلت لتموين الغلايين لا ترافقها بل يضرب لها ميعاد ومكان للالتقاء بها .

فقال الامير : اني طائع لسموه في كل ما يأمرني به . ان شاء ان اسافر في غلايين ام في اغربة ام في قارب فعلت . وان لم يرغب في سفري لبثت هنا مكاني . فاجابوه : لا غرض لسموه سوى مساعدتك وتعزيتك في محنتك لقاء الثقة التي وضعتها فيه بلجوئك اليه . لذلك تجده مستعدًّا ان يهبك عن سخاء كل ما يستطيع اليه سبيلًا . وان امتنع فعن عجز لا عن بخل . فاجابهم : انا مدين لسموه الدين كله . وما حملني على طلب غراب يرافق الغليونين، اذا كان الامر مستطاعاً، هو الظهور امام رعاياي بمظهر

لائق[١] . فلا ازيد الان على طلبي سوى كمية من البارود والرصاص احملها الى رجالي

فحضر المندوبون عند الامير في اليوم التالي وبشروه ان الغراندوق قد اصدر امره بتجهيز الغليونين باسرع ما يمكن وانه سيأتي بنفسه الى ليڤورنو للاشراف على هذا العمل واستعجاله اكراماً له . ولما كان الوقت لا يسمح بتجهيز الاغربة فهو يقدم له بطيبة خاطر مركب الترتانا[٢] العائد اخيراً من لبنان .

فلهج الامير باحرّ عبارات الشكر والدعاء لسموه . فسألوه اذا كان في نيته البقاء في بلاده ام العودة . فاجابهم انه يفضل العودة[٣] .

٢ ـ **الامير يعدل عن السفر** ـ لم يكتفِ الغراندوق باصدار امره بتجهيز الغليونين بل فكر ايضاً في شراء مركب الترتانا، بدلاً من استئجاره — وكان تجهيزه يتطلب اربعين بحرياً وستين جندياً تبلغ نفقاتهم الشهرية ٦٥٠ ريالاً . وامر ايضاً ان يعطى الامير من البارود والرصاص الكمية التي طلبها، فضلاً عن ثمانية ام عشرة من رماة المدافع الماهرين وصناع دواليب عجلاتها مع كل لوازمها . فارسل الامير يشكر له معروفه .

وعاد المندوبون فسألوه كيف يريد ان يرتب محلات نسائه في الغليون، لان مولاهم لا يشاء استبقاءهن رهينات، كما عرض عليه . ففهم الامير انهم يرمون بذلك الى التخلص منه . فأجابهم انه لم يفكر في اخذ نسائه معه، لانه ينوي السفر وحده ليعود حالاً . فاعترضوا ان هواء ليڤورنو في الصيف غير صالح لهن، وقد يمتن من الامراض . فاجابهم الامير بنزق : فليمتن !

ولما فشلوا في هذا المضمار انتقلوا الى غيره وسألوه عن عدد الاشخاص، الذين ينوي احضارهم معه . فاجاب سبعة ام ثمانية من الرجال واثنتا عشرة من النساء، مع خمسة

---

(١) كان وعدهم ان يعود من الغرب بنجدة قوية

(٢) هو شكل من المراكب كان شائعاً في ذاك العهد

(٣) ف ٢٢٦ ـ ٢٣١

او ستة اطفال، فضلاً عن عبيدهم الذين قد يبلغون ثلثمائة . اما اذا كان الغراندوق غير راغب في استخدام هؤلاء العبيد، بيعوا .

ورأى المندوبون ان يرفعوا عن مولاهم ثقل هذا الجمهور . فابدوا له ان اقامته في تسكانا هو واولاده واحفاده قد تدوم . وفي هذه الحال لا بدّ لسموه من الفوز باذن خاص من الحبر الاعظم، وطلب موافقة بقية الامراء المسيحيين. فيهمهم الان ان يعرفوا المكان الذي سيختاره لسكناه بعد عودته، واذا كان في نيته شراء مزارع وقصور من مال الخزنة التي سيجلبها معه .

فلما سمعهم يتحدثون عن مزارع وقصور يشتريها، وخزنة يجلبها اجابهم ببرود : ليس عندي خزنة اجلبها معي . لقد جئت بلادكم لاجئاً الى الغراندوق[1]؛ فان شاء ان ابقى هنا بقيت، وان شاء ان ارحل رحلت !

فخافوا ان يتجاوزوا نيات مولاهم لو واصلوا الحديث على هذا النمط، فكفوا عن الاسئلة .

ولما غابوا اخذت الهواجس المزعجة تتلاعب في مخيلة الامير والظنون السيئة تحوم حول نيات الغراندوق ووزرائه في امره . فقد طلب اليه منذ تشرين الثاني مراكب يقصد بها الى لبنان لتخليص بعض ذويه واملاكه والرجوع الى تسكانا قبل فصل الربيع، الذي يخرج فيه الاسطول العثماني الى البحر المتوسط . ففضل الغراندوق ان ينتظر عودة الخبراء للبت في هذا الامر . والان قد رضي ان يخاطر بنفسه ليذهب ويعود سريعاً، فاذا بهم يفاتحونه باخذ نسائه معه، وان عاد، بشراء مزارع وقصور، اي ان يختار لنفسه ولذويه النفي المؤبد ؛ مع ان احواله السياسية في تحسن، وقد بات ينتظر سقوط نصوح باشا عن الوزارة وقيام احد اصدقائه العديدين في الاستانة بدلاً منه . فالاوفق اذن ان يتريث في تسكانا مع اسرته ريثما تظهر نتيجة الحملة الثانية التي يعدها هذا الوزير عليه، وان يكتفي باعادة رجاله على الغليونين الجاهزين، فيخفف عن الغراندوق نفقات اعالتهم .

جاء هذا القرار نتيجة طبيعية لتطفلات المندوبين . وقد ارتكبوا في اليوم التالي خطأً اعظم منه لما سألوه عن الفائدة العائدة على النصرانية من وراء هذه البعثة الثانية،

---

(١) كما هي العادة في الشرق

التي يتحمل الغراندوق نفقاتها لمصلحته . فاجابهم الامير بفتور : اني ارى الاوفق تأجيل سفر الغليونين شهرين، حتى تظهر نتيجة الحملة العثمانية على بلادي. لان الاسطول العثماني اذا ادركنا حاربنا، واسرني، وغنم المراكب . وان افلتنا منه وتمكنتُ من النزول الى لبنان هاجمني الاتراك برًا وبحرًا هجوماً عنيفاً، ونكلوا برعاياي، وخرّبوا بلادي .

فارتسمت امارات الدهشة على وجوه المندوبين لدى سماعهم هذا القول . وسأله احدهم بمرارة كيف اتخذ هذا القرار بعد ان الحّ في تجهيز الغليونين بسرعة . وقد انفق مولاهم عليهما ثلاثين الف سكوت، ذهبت الآن ادراج الرياح، واصبح اضحوكة في نظر بقية الامراء المسيحيين، العارفين بأمر الحملة التي جهزها .

فاجابهم الامير بصراحة ما بعدها صراحة : لقد الححتُ في تجهيز الغليونين ليتسنى لي الذهاب والاياب بسرعة وحدي لتخليص ذويَّ ونقلهم الى هنا . ولما اشرتم علي باستحضار خزنتي وشراء مزارع وقصور واستيطان بلادكم نهائيًا، وهو ما يستحيل علي قبوله، فضلت التريث والبقاء هنا مع اسرتي، واعادة رجالي بدلاً من استحضار غيرهم وجعلهم عالة على سمو الغراندوق .

فذكره احدهم بوعده ان يقود الحملة لاستخلاص الاراضي المقدسة والاستيلاء على دمشق وطرابلس . فاجاب : انا ما زلتُ على العهد . واكرّر القول ان الحملة ناجحة باذن الله اذا اجتمعت عليها كلمة الامراء المسيحيين . اما ان يقوم بها الغراندوق وحده، فقد نصحته منذ البدء بان لا يفعل، لانه فاشل لا محالة .

فاشار عليه احدهم ان يصطلح والسلطان . فاجابه : هذا رأي سديد، لكنه جاء متأخرًا . لان السلطان لم يعد يركن الي بعد ان لجأتُ الى الامراء المسيحيين وأثرت حفائظهم عليه[1] .

٢ ـ **مروءة قزما الثاني** ـ كان الغراندوق قزما الثاني على جانب كبير من

---

(١) ف ٢٣١ ـ ٢٣٣

شهامة النفس والمروءة . ففضل خسارة المبلغ الجسيم، الذي انفقه لمصلحة ضيفه، على ان يفسح له مجالاً للشك في مروءته .

اولاً : الضيافة . ففي السادس والعشرين من نيسان نفسه أوفد الى الامير كاتب اسراره وامره ان يقول له : « ان سيدي الغراندوق لا يكتفي باستجابة رغبتك في البقاء هنا، بل يؤيدها ويحبذها، ويودّ ان لا تعدّ نفسك منذ الآن غريباً عن هذه البلاد، بل اصيلاً فيها . ولهذا الغرض، ورغبة منه في ان تكون اميناً على نفسك وعلى ذويك تحت رعايته الخاصة، قد عقد النية على ان ينقلك بعيالك الى عاصمته فلورنسا، وان يتزلك اجمل احيائها، في قصر تتوفر لك فيه جميع اسباب الراحة والكرامة . وهو واقع في السوق العريضة[1]، شيده عمه الامير بطرس مديشي . وسيجهزه بالرياش واللوازم المنزلية . ويضع تحت تصرفك عربة من عرباته وخيلاً من اسطبله لروحاتك وجيئاتك . وقد عين لك راتباً سنوياً قدره الفا سكوت، اي زهاء الفي قرش، ليتسنى لك العيش على هواك وذوقك مع الحاشية التي ترغب في استبقائها .

« وان ما يقوم به الغراندوق في سبيلك يحمله عليه تقديره للثقة التي وضعتها فيه بلجوئك اليه وطرح كرامتك ومستقبلك وحياتك بين يديه . وهو ما أثر فيه تأثيراً عميقاً جعله مستعداً ان يتجاوز في عطائه ما قرره لراحتك تجاوزاً بعيداً، لولا ان هناك اعتبارات سياسية وداخلية اوقفته عن هذه الرغبة » .

فاجاب الامير شاكراً على هذه المنحات والعواطف واحدةً فواحدة .

فاردف المندوب بقوله : « الان وقد عرفت المبلغ المعين لمعاشك، فعلى سعادتك ان تحدد عدد الاشخاص الذين ترغب في استبقائهم والذين ترغب في الاستغناء عنهم . على ان سموه يعدك بان يوصلهم جميعاً سالمين مكرّمين الى حيث شاؤوا[2] » .

ثانياً : عودة الثقة الى الامير . اثر هذا الموقف الشريف، الذي وقفه الغراندوق،

---

(١) Via larga

(٢) ف ٢٣٣ ـ ٢٣٤

فوائد جمة مادّية وادبية . فقد وفّر على خزنته مبلغاً يذكر من نفقات الامير، وحمله بلطف على التخلص من قسم كبير من رجاله، واعاد الى نفسه الثقة به، بعد ان داخلها الشك والحذر . وقد وقفنا على لائحة بما كان يقدّم يومياً الى الامير من اصناف المأكولات واللوازم فاذا به يفوق الاثني عشر سكوتاً في اليوم .

بيد ان الغراندوق تسرّع في تجريد الغلايين من سلاحها وصرف المجندين فيها دون استشارة آل الخبرة . وقد كان في وسعه ان يستخدمها، كما فعل بعدئذ، في اعادة رجال الامير والسطو على المراكب العثمانية الحربية وحمل الغنائم من مراكبها التجارية . فيعتاض اضعافاً عن النفقات التي تكبدها في سبيل تجهيزها .

وهذا ما حمل قائد الحملة على ان يكتب في ٢٦ نيسان نفسه الى الغراندوقة، يستحلفها بتحويل ولدها عن هذا الرأي، العائد عليه بالخسارة المحتمة . وقد علمنا من كتابه المذكور ان المجندين كانوا قد بلغوا الخمسمائة وان نفقتهم الشهرية لا تتجاوز ثلاثة آلاف سكوت .

ولما عرف الامير بنية الغراندوق هذه ندم على اضاعة الفرصة لتسليح ذويه وتشجيعهم على الثبات . وخاف ان يؤولوا رجوع رجاله وحدهم بتخلي الامراء المسيحيين عنه . فهرول الى پيزا، حيث كان الغراندوق، ليبين له استعداده لمرافقة العائدين . بيد انه لم يتمكن من مقابلته لانشغاله بمرض الامير فرنسيس .

وبالرغم من انشغاله وارتباك افكاره أوفد الى الامير في اليوم التالي احد اخصائه ليطلع على غرضه من المجيء . فاوضح له الامير نيته في مرافقة العائدين لتشجيع رعاياه وتدبير بعض شؤونه . على ان يبقى الحاج كيوان في تسكانا مع ثمان نساء واربعة رجال من معيته .

ففي ٣٠ نيسان انتدب الغراندوق الكونت وارويك[1] لتبليغ الامير استعداده لتلبية رغبته الاخيرة، وانه عيّر عالجٌ بالثلاثين الفاً، التي ذهبت هدراً في تجهيز الغليونين . بل انه عاقد النية على انفاق ضعفي هذا المبلغ في سبيله، شرطَ ان يستقر على رأي، ولا يعود عنه . فطلب الامير ان يبقى لدى وصوله الى لبنان في المركب، فلا

---

(١) Warwick

يُجبر على النزول منه، وان يُسمح له باستحضار ولده واحد اخواله، اذا وجدهما في خطر. وختم قوله انه «لا ينسى ما دام حيًا فضل سموه عليه». وسنرى انه برّ بهذا العهد حتى آخر نفس من حياته.

وكان المندوب يحمل صكًا حاوياً بعض الشروط، التي وضعها وزراء الغراندوق، ليوقع عليها الامير. فتمنع عن توقيعها خوفاً من ان يطالبوه بالثلاثين الفاً، الذاهبة على تجهيز الغليونين، واكتفى بان كتب رسالة بمعناها. فحنق الاميرال انجرامي من هذا الرفض وكتب الى امين سر الغراندوق يقول «هذا الرجل الهمجي لا يرمي من وراء مناوراته سوى الى تحميل سموه النفقات سدًى».

وحمل المندوبون الحاج كيوان على ان يكتب الى الغراندوق عهداً على نفسه بان يترأس هو الحملة، اذا رضي الامير تقليده قيادتها. فيقوم باعمال باهرة ومغامرات خطيرة «يبلغ صداها حتى الهند». هذا التبجح كان يرمي الى اظهار الامير بمظهر الجبان المتقلب، والحطّ من قدره في عين الغراندوق وآل بلاطه؛ وقد نسي هذا الخائن انه المسبب الاول لنكبة سيده.

ثالثاً: تدخل السفير الفرنسوي. اما الامير فقد كان في حيرة من امره. ان قعد في تسكانا ظل ذليلاً، مجرداً من السلطة والكرامة، عالة على الغراندوق، وهدفاً لاحتقار وزرائه ودسائسهم؛ ناهيك عن الوهن، الذي قد يتطرق الى ذويه من جراء بقائه، لتشبثهم من تخلي الامراء المسيحيين عنه. وهو يعلم ان اخاه ضعيف الرأي، وولده حديث السن، شريد طريد؛ ووالدته سجينة عدوه الحافظ، وقد تركها ذووه رهينة في يده لمبلغ تافه لا يتجاوز العشرين الفاً.

وان ركب البحر استهدف للوقوع في مخالب الاتراك، دون فائدة تُرجى لذويه ووطنه. وان بلغ لبنان تكالبوا عليه وهاجموه بشدة براً وبحراً. قصد الى الغرب واثقاً من ان يتحمس امراؤه لمشروعه ويعززوه بالمال والرجال والاساطيل والاعتدة. فاذا بهم غير مكترثين لامره، الا الغراندوق، الذي لا قدرة له على مجابهة الاتراك وحده.

وفي هذه الاثناء وصل الى ليفورنو السيد ده بريف، سفير فرنسا في رومية، وهو الذي وجه الى الامير تلك الرسالة الرقيقة[1]. فرأى الغراندوق ان يكلفه كشف نيات

(١) رص ١٩٧

الامير الحقيقية واقناعه بما يعود لمصلحة نفسه . فاستطلع السفير حقيقة امره وكتب الى الغراندوق واصفاً حالته النفسية المرتبكة واستعداده لمرافقة العائدين من رجاله، شرطَ ان لا يرغم على النزول الى البرّ، اذا وجد شؤونه على غير هواه . وانه جاء الى الغرب آملاً بمساعدة امرائه، فوجدهم لاهين بمنازعاتهم عن مشروعه . فاذا كان هناك من امل باتفاق كلمتهم، انتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر .

فاجابه الغراندوق مؤكداً استعداده لخدمة الامير مهما كلفه الامر، نظراً لثقته به . وانه قد اصدر امره باعادة تسليح الغلايين، لانها قادرة على الدفاع عنه عند الحاجة . وقد ترك له حرية النزول الى البر او القعود في المركب، والعودة بها الى تسكانا، كما يحلو له . وان شرفه ورغبته في خدمة النصرانية يوحيان اليه بتحمل كل هذه المتاعب والنفقات الباهظة في سبيل الامير . وختم بقوله « ولعل العناية الالهية تستخدم هذا الرجل لمصلحة الدين، بطرق خافية علينا وظاهرة لديه سبحانه وحده[1] » .

٣ ـ **مساعي الخوري نصرالله** ـ وجاء بمعية السفير من رومية صديقه الخوري نصر الله شلق العاقوري، احد نوابغ المدرسة المارونية برومية، والملفان في الفلسفة واللاهوت . وهو الذي ترك كل ثروته، بين يدي مجمع انتشار الايمان المقدس، لتأسيس مدرسة لاحداث طائفته في راثنا، من اعمال ايطاليا[2] . وكان كاتباً لمجلس شورى « الجندية المسيحية[3] »، التي أسسها اوربانس الثامن لحماية المسيحيين من تعدي الاتراك . قصد الى الغراندوق ليحمله على تكليفه ادارة المطبعة المديشية الشرقية، المذكورة اعلاه[4]، فينشر بها الكتاب المقدس بعدة لغات[5] . وهو مشروع خطير اتمه بعدئذ الفرنسويون وساهم فيه علماء الموارنة اكبر المساهمة .

---

(١) ف ٢٣٧ ـ ٢٤٠

(٢) راجع عنه تاريخ الدبس ص ٣٨١، والمشرق ٢٨ : ١٩٣ ، والاب لويس شيخو في « كتبة النصارى » ص ١٢٦ و١٢٧، وفي « الرهبانية اليسوعية والطائفة المارونية » ص ١٠٦

(٣) Milizia Cristiana

(٤) ر ص ١٦٤ و١٧٨

(٥) Polyglotte

اولاً : انتعاش المشروع . وكان الخوري نصرالله قد باشر بحضور السفير استطلاع نيات الامير فكلفه الغراندوق مواصلة المفاوضة معه في شأن رحلته . فتمكن بفصاحته ووطنيته من تهدئة افكاره واقناعه بقيادة الحملة، التي يجهزها الغراندوق لمصلحته، وعاهده على السعي في رومية لدى الكرسي الرسولي وملك اسبانيا لاعداد حملة قوية، تشترك مع قوات الغراندوق في اعادته الى منصبه واستعادة الاراضي المقدسة .

ومما زاد الامير نشاطاً وصول احد القرصان التسكانيين من صيدا باخبار سارّة عن فشل اعدائه وثبات رعاياه على ولائه .

ووعد الامير الغراندوق، ان فازت الحملة، بان يسلمه قلعتي بانياس وشقيف . الاولى تسع الف محارب، لكنها خالية من المدفعية لبعدها عن السواحل . غير انه يسهل جرّ المدافع الخفيفة اليها . والثانية تحتوي عشر قطع من المدافع بين صغير وكبير، وتسع ثلثمائة مقاتل . اما قلعة صور ففي حاجة الى ترميم، وترميمها سهل لوفرة الماء والاحجار والاخشاب حولها . والمدينة تحتوي زهاء مئتي منزل صالح للسكن وبئرين للمياه الحلوة . واينما حفر المرء هناك وجد الماء . بيد ان المطاحن بعيدة عن المدينة زهاء ميل[1] . والزاد فيها شحيح لا يكفي جيشاً . انما للامير جار صديق في وسعه ان يكفيه حاجته من اللحم والقمح .

وتم الاتفاق على ان تبقى نساء الامير في ليفورنو حتى عودته . واخذت والدة الغراندوق وزوجته على عهدتهما العناية بهن وانزالهن اماكن صحية، لائقة بمقامهن . ووضع الغراندوق تحت تصرف الامير خبراء ومهندسين ونجارين لعمل عجلات المدافع، وزهاء ستين قنطاراً من البارود، وما يلزمها من الرصاص؛ فضلاً عن خمس قطع من المدافع لتسليح القلاع، ورجال ماهرين بادارتها .

ونزل ايضاً الغراندوق عند رغبة الامير في تسليح مركب الترتانا فضلاً عن الغليونين، ليظهر امام رعاياه بمظهر يحملهم على انتظار مساعدة الامراء المسيحيين له . وكلف الخوري نصرالله مرافقته للثقة التي بثها في نفسه . فقبل المذكور هذه المهمة الوطنية، بيد انه

---

(١) على برك سليمان في رأس العين

لفت نظر الغراندوق الى انها قد تحرمه الى الابد العودة الى الوطن، لسخط الاتراك عليه، فضلًا عن خسارة الوظائف التي يشغلها . ورجاه ان يستصدر له مرسوماً يعينه فيه الحبر الاعظم رسمياً مندوباً لدى الامير لا ترجماناً . حتى اذا عاد من رحلته وجد هذه الوظائف محفوظة له . فهو نازل في دار السفير الفرنسوي برومية، يأكل على مائدته . ويشغل وظيفة قارئ العربية في احدى الكليات ومدير المطبعة العربية، ومعرّف في احدى الكنائس، فضلًا عن الاعانات التي يتناولها من خزندار قداسة البابا .

ثانياً : الاباتي مانتشيني[١] . وكان للموارنة في رومية صديق قديم، اسمه الاباتي مانتشيني . كان كاتباً لاسرار الكردينال انطون كرافا، حامي الطائفة المارونية وصاحب الفضل الاكبر على مدرستها في رومية . فقد ترك لها كل ثروته حتى اصبحت اغنى مدارس رومية مالاً وعقاراً[٢] . هذا السيد لما علم بقدوم الامير الى تسكانا، كلف احد اقاربه العائدين الى فرنسا ان يمرّ به ويسلمه كتاباً منه عرض فيه عليه خدماته لدى الكرسي الرسولي وملك اسبانيا[٣] . وقد وجدنا لهذا الكتاب ترجمة عربية بخط جميل كنائسي، اليك نصها الحرفي[٤] :

ايها السيد المعظم الامير المشرف المفخم

من قبل سنين كثيرة علي زمان سيّدي المرحوم الكردينال كَرَافَا بلغتني من عند اساقفه ومطارين موارنة اخبار كثيره عن حكمة حضرتكم الشريفه وعزّها وقوّتها وعن حبّها وجود خاطرها من جهة معونة النصاري وخدمتهم بكلّما استطعتم . ولذلك دايماً طلبت لحضرتكم

---

(١) Mancini

(٢) راجع مقالنا في هذه المدرسة في مجلتنا السورية ٢ : ١١

(٣) راجع نصه الايطالي في ف ٢٤٧

(٤) نشرناها في مجلتنا البطريركية ٧ : ٥٦٦

العزّ والتفخّم واجتهدت بذلك بكلّ قوّتي ليس فقط عند سيدى سلطان اسبانيا بل وايضاً عند قدس سيّدنا البابا كما اظنّ انّ حضرتكم خبيره بذلك علي يد الاساقفه والمطارين الموارنه المذكوره الذين رجعوا من رومه الي بلاد سوريّا . ويشهد لي بذلك الغران دوكا فرديناندو المرحوم الذى كنت دايم اخبره بجود حضرتكم وفضلها الجزيل . وعارفين ايضاً بذلك نصرالله وجبرايل الموارنه[1] الذين من اجل جودهم وفضايلهم عزيزين عندي كاولادي . فلذلك لا تتعجّب حضرتكم الشريفه ان كنت انا بسبب مجيّ السينيور كاواليرو بولي مانتشيني حامل الاحرف وكاتب الكردينال جيُوُيُوسَا[2] القاطن في بلاد فرنسا بعثت بهذه الرسالة اقبّل اياديكم . واطلب الي حضرتكم الشريفه بانّها تبعث تامرني بهذه المدينه عند الاكابر لاني بالحال مشتهى غاية الاشتهي اخدم حضرتكم علي الراس والعين كما يخبركم الكاواليرو المذكور وهو من ناس اكابر وله فضل كمثلما تنظر حضرتكم من الخطاب معه . وهو ايضاً يشرح لكم بالطول عن جميع الاحوال . ولاجل ان المذكور عزيز جدًّا عند استاده يمكن انّه يخدمكم في بعظ الامور ببلاد فرنسَا . وبهذا اكتم[3] قولي اذ طالب لحضرتكم الشريفه من الله تعالي بانّه يرزقكم جميع ما في خاطركم بكل خير وسعد كمثل ما انتم مستحقون امين .

كتب ذلك بمدينة رومي بثامن يوم من شهر اذار سنة الفستاية واربعة عشر مسيحية على يد عبدكم الحقير اوراتسيُو مَنتشيني

---

(١) نصرالله شلق العاقوري وجبرايل الصهيوني

(٢) Gioiosa

(٣) ان كتابة بعض بالظاء واختم بالكاف دليل على ان التعريب وُضع اولاً بالكرشوني ثم نقل الى العربية

ثالثاً : حبوط المشروع . وقد قام الاباتي مانتشيني بمساعٍ حميدة لمصلحة الامير . بيد ان عراقيل غير منتظرة وقفت في طريق المشروع، فذهبت جهوده وجهود الخوري نصرالله ادراج الرياح .

فقد أبت زوجة الامير الا مرافقته في هذه الرحلة . وزأى الامير ان يجاريها في رغبتها لعله يجد، عند وصوله الى لبنان، اموره قد تحسنت فيلبث فيه . والا عاد بها الى تسكانا . ويظهر من مجمل الوثائق الخاصة بهذه المشكلة ان هذه الفكرة قد دسّها له بعض الملتفين حوله لاغراض شخصية، وان لقنصل صيدا الفرنسوي ضلعاً فيها، لاهداف سياسية كان يرمي اليها . بيد ان قائد الحملة تمنّع عن قبول النساء في المراكب الحربية « لانهن يشغلن مكان مئة مقاتل ويعرقلن حرية الهجوم والدفاع في اثناء الغارة، ناهيك عن الذعر الذي يستولي عليهن في هذه الحال وهن حاملات » .

اما الخوري نصرالله فادرك رومية على جناح السرعة في اواسط ايار، مزوّداً بتوصيات الغراندوق الى الحبر الاعظم واكابر عاصمة الكثلكة، فضلاً عن تعليمات دقيقة لسفيره فيها . فانزله السفير في داره على الرحب والسعة وابدى الاهتمام الكلي بمشروعه . ثم قصد الخوري نصرالله الى الاباتي مانتشيني، فهرول معه الى دار السفارة التسكانية وتداول مع السفير طويلاً في الخطة التي يحسن انتهاجها لنجاح المشروع . ووعد بوضع كل نفوذه في هذه الكفة، ساعياً جهده لدى الحبر الاعظم وملك اسبانيا واكابر رومية .

وفي اليوم التالي تلقى السفير التسكاني من مولاه امراً مستعجلاً بالكف عن هذه المساعي، لان الامير عدل عن السفر . فأسقط في يد الخوري نصرالله عند سماعه هذا النبإ، وتبددت الاحلام التي كانت تغذيها آماله الوطنية بنجاة لبنان من براثن الاتراك وانفساح المجال امامه في طريق الاستقلال والرقي والعمران . بيد انه لم يفقد شجاعته كلها، فكتب الى الغراندوق والى والدته متوسلاً ان يواصلا تجهيز الحملة، غير مكترثين لتردد الامير، لانه ناتج عن تأثير اصحاب الاغراض السافلة عليه . اما هو فواثق ان يقنعه لدى عودته بالسير في طريق مصلحته ومصلحة وطنه . انما رجاهما ان يبعدا عنه مستشاري السوء، « الدائبين على عرقلة هذا المشروع العظيم النفع لاغراض في نفوسهم[1] » .

(١) ف ٢٤٠-٢٥١

الفصل الخامس

الامير في فلورنسا

١ ـ **حلم الغراندوق** ـ اما قزما الثاني، فلما علم برجوع الامير الى قراره السابق، لم يتكدر منه بل قبل عذره وبرّ بوعده ان ينقله الى احد قصوره في فلورنسا عاصمته .

اولاً : وثيقة الاقامة . وبعث اليه بوثيقة عربية[١] وقعها الامير بخط يده، كما ورد في نصها . اما انشاؤها فيدل على انها مترجمة عن الايطالية . وهي تختلف عنها قليلاً[٢] :

« ١٢ ايار ١٦١٤ . طلبات السيد الامير وتلبية سموه لها . وقعها السيد الامير[٣] »

الامير المكرم فخر الدين اشتها يقعد في بلدان الامير المعظم[٤] وتحت حمايته الشريفه مع حرمته وبنته وجوارها وولدين صغار يخدموا الباب وستة ام سبعة من خدامه والحج كيوان مع باقي ارفاقه الاوخار الموجودين معه الان يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا اهله انه جالس في بلاد النصاري ليسعي بوساطة الامير المعظم معونه وقوه من البابا وباقي سلاطين النصاري ويرجع لبلاده بعماره قويه ولذلك طلب من

---

(١) نشرناها في مجلتنا البطريركية : ٧ : ٤٦٤. وقد بعثنا من رومية بصورتها الشمسية الى صديقنا الدكتور أسد رستم، فنشرها في صدر تاريخ الامير للخالدي، الذي تولت ادارة المعارف اللبنانية اصداره في السنة ١٩٣٦ . وقد ظهرت ايضاً في تقويم البشير للسنة ١٩٣٧

(٢) راجع النص الايطالي في ف ٢٥١، حيث اشرنا الى الفروقات

(٣) هذا العنوان مكتوب بالايطالية في رأس الوثيقة

(٤) « الامير المكرم » اي فخر الدين، « والامير المعظم »، اي الغراندوق

حضرة الامير المعظم ينعم عليه بهما يعتازه بذلك .

اما الامير المعظم اذ فهم خاطر الامير المكرم المذكور اراد يكمل طيبة خاطره معه انه بكل الاشيا الممكنه يقنعه ورضي بذلك وسهّل احواله في كل بلدانه وبيريد يعطيه مساكن لايقه في مدينة فلورنصيا وعربه لخدمته وخيل من خيله ومونه وعلوفه من شانه ومن شان جماعته الفين قرش فلورنتيه كل عام ولايمان ذلك هذا العهد ثبت ذلك بخط يده وختمه بهره وعلمه بخط ياصجيه نهار الثاني عشر من ايار سنة الف ستمايه واربعة عشر مسيحيه في مدينة بيسا

الختم بيضوي الشكل : مفخر آل معن فخر الدين الامير فخر الدين ابن معن

ثانياً : حاشية الامير . وكُلف الشيخ يزبك ابن العفيف قيادة جمهور العائدين . فسأل الامير الغراندوق ان يسلم الشيخ المذكور ما وعده به من المدافع والبارود والرصاص والخبراء . فنزل عند سؤاله . ورجاه ايضاً ان يبعد عنه القنصل الفرنسوي . فاجابه انه قد اصدر اليه الامر بالرحيل .

وقامت الاستعدادات على قدم وساق لاعداد القصر المديشي لنزول الامير، وتجهيز الغليونين لسفر رجاله . على ان يسافر المركبان في اوائل حزيران ويمكثا في لبنان حتى انتهاء موسم القز، اي اواخر تموز . ولعل الغراندوق قصد شحن كمية من الحرير اللبناني .

ونُقل فخر الدين الى الطابق الارضي من قصر الامير بطرس مديشي . وهو يحتوي عدة غرف، وفي داخله المياه الجارية، وامامه جنينة جميلة التنسيق، وقفت فيها التماثيل البديعة على قواعد رخامية تنظر الى الخضرة والزهور، مما اثر في مخيلة الامير فحاول تنسيق جنينة قصره في بيروت على شكلها . وتحجب الجنينة عن الابصار اسوارٌ عالية، في وسطها بوّابة كبيرة من الحديد، تظهر الطريق من خلال قضبانها . وقد حُوّل الان هذا القصر الى متحف وطني .

وكانت خاصة الامير مؤلفة من زوجته خاصكية بنت الظافر وبنتها الصغيرة وخدمها، اي خمس جوارٍ وثلاثة غلمان وحاجب زنجي وعبد صغير . وابقى معه احد قواده المدعو الحاج محمد، وعلي شلبي ابن كاخيته مصطفى، والشيخ خاطر الخازن ابن ابي نادر، والشيخ ناصر المؤذن[١]، ومحمد علي الحلاق، وخادمان يونانيان باسم ساليبّي ونقولا . وآخر يُدعى ابرهيم . وجملتهم واحد وعشرون نفساً .

ثالثاً : الحاج كيوان . واستأذن الحاج كيوان ان يبقى في تسكانا الى ان تصطلح احواله في الوطن . فاذن له الغراندوق وسلمه تذكرة هويّة مؤرخة في ١٦ ايار ١٦١٤، كي لا يتعارضه احد، لكونه غريباً . وسمح له باستبقاء اثني عشر من ذويه، وعيّن لاقامته بلدة مونتيكاتيني[٢]، واوصى به حاكمها خيراً . واليك لائحة حاشيته مع سنّ كل من افرادها . ولا بأس اذا قرض الحاج بضع سنين من عمر زوجته وابنته، جرياً على العادة الشرقية في تصغير اعمار النساء .

الحاج كيوان بن عبدالله[٣]	٧٥ سنة
اسطا ريغان عبدالله	٣٠ سنة
حمدان عبدالله	١٨ سنة
فرحات عبدالله	٢٣ سنة
درويش عبدالله	١٠ سنين
بشير عبدالله	١٠ سنين
اسحق اليهودي	٣٧ سنة
جيغون والدة البنت	٢٠ سنة
صالحه بنتها	٣ سنين[٤]
نازيني	٢٥ سنة

---

(١) خ ٢٣٥

(٢) Montecatini

(٣) راجع ترجمته في المحبي ٣ : ٢٩٩ – ٣٠٣ وما قلناه فيه سابقاً ر ص ١٢١ و١٢٢

(٤) يقول ماريتي انها كانت صبية في الثامن عشرة على جانب من الجمال والخفة

إلّستان ١٣ سنة

شكيره ٢٥ سنة

وقدم الحاج كيوان طلباً آخر سأل فيه الغراندوق ان يمنحه تذكرة اخرى يسمح له فيها بالرجوع الى وطنه متى استقامت احواله، واذا توفي في الغربة ان يسمح لابنته بالعودة مع خدمها ومقتنياتها واموالها . فلبى الغراندوق طلبه .

رابعاً : المطران يوحنا الحصروني . هو احد تلاميذ رومية، ابن عم الشدياق خاطر الحصروني . كان من رهبان مار عبد الاحد . وضع بالعربية كتاباً في الاسرار ترجمه في رومية الى اللاتينية . اوفده الى حلب البطريرك يوحنا مخلوف لجمع العشور[1] فالتقى بمصطفى كتخدا الامير عائداً من الاستانة . فسلمه بعض الرسائل الى فخر الدين يطلعه فيها على شؤون هذه العاصمة ومجرى السياسة فيها، كما سنرى . فحملها المطران يوحنا الى تسكانا . وحال وصوله الى ليفورنو كتب بالايطالية الى الغراندوق يخبره بقدومه، وبالرسائل التي يحملها الى الامير . وقد وقّع اسمه والقابه بالايطالية والسريانية[2] :

[illegible]

اي « يوحنا المعمدان الحصروني . الراهب الدومنيكي . المطران . تلميذ البابا » .

والخاتم يمثل العذراء مريم وطفلها في وسط غيوم . وهو بغير تاريخ ولا ترجمة .

وكتب ايضاً على نفس الورقة الى فخر الدين بالعربية الرسالة التالية :

سلام الله الحي القدوس محيي الاجساد والنفوس ومعيدها الي قراينها باحسن الطقوس نخص بـه حضرة سيدنا واميرنا فرح قلوبنا

---

(١) كان في حلب في ٦ ايار ١٦١٣ . وهو تاريخ رسالة وجهها من هذه المدينة الى الكردينال دو برّون الفرنسوي du Perron زعم فيها ان الموارنة من اصل فرنسوي . راجع عنه المشرق ٢٨ : ١٩٠ و١٩١، وشيخو « المخطوطات النصرانية » ص ٩١

(٢) الكتاب بلا تاريخ . بيد ان ترجمته الايطالية (ف ٢٥٤) تحمل تاريخ ١٥ ايار ١٦١٤

وسرور طايفتنا المارونيه الجليل القدر امير فخر الدين المكرم والذي يعرضه علي شريف علمكم عبدكم المعروف بخدمتكم مطران حنا الحصروني كاتب هذه العبوديه فهو انه عن قريب جايكم بمكاتيب كاخيتكم مصطفي بن حسن شلبي مع اخبار عده وانشالله انكم منصورين علي اعداكم والعاقبه للخير بمعونة ينبوع المعونة الالهيه سيدنا مهدينا وصانع خلاصنا يسوع المسيح وبشفاعة والدته العذري مريم الدايم بتول باية لا صار قبلها ولا يصير بعدها اية تناسبها باعمال الواحد الله هذا الذي نساله متضرعين الي مراحمه الجزيله يجعلكم باهلً ويصيركم اميراً مسيحياً بطاعة الپاپا مؤيّداً بالعز والنصر الالهي بالمذهب المسيحي الذي هو وحده مذهب الحق والنجا المنزل من السما بوساطة الكلمة الازلية سيدنا يسوع المسيح لخلاص راغبين الخلاص بالايمان المذكور ولهلاك الهالكين بلا رحمه بسو اعمالهم وعلومهم الجهنميه السارعه لنار الجهنم الي الابد .

انهي ذلك عبدكم الحقير المذكور اعلاه مع تقبيل ايادكم الف الف مره[1] .

٢ ـ **العفو الزائف** ـ وفكر الغراندوق ان يسعى للامير لدى السلطان بالعفو والرجوع الى منصبه . ودعم طلبه بابداء رغبته في عقد الصلح بين تسكانا والدولة العثمانية . واستكتب وزيره اوزمباردي كتاباً بهذا المعنى الى محمد اغا، كتخدا السلطان . وارسله بصحبة احد تجار الاسرى، المدعور جسبار الكرواتي[2] . فورد له من نصوح باشا

---

(١) ف ٢٥١ ـ ٢٦٢

(٢) Gasparo Croato

الصدر الاعظم الجواب الاتي نصه بالتركية :

افتخار الامراء الملة المسيحية مختار الطايفة الامة العيسوية مصلح مصالح جماهير الفرقة النصرانية ساحب اذيال المجد والوقار صاحب دلايل العز والاقتدار قوزموغراندوقه دتوسقانه ختمت عواقبه بالخير طرفنه خلاصهٔ كلام ونقاوهٔ پيام كه اهل اسلام ايله مسالمه ومصالحه كز سيندن باعث اولور انها واعلام خير انديشانه اولدركه سابقا بو ولاجويكزك در دولت مداردە كتخداسى اولوب حالا دولتلو وسعادتلو وشوكتلو وعظمتلو پادشاهمز اعز الله انصاره حضرتلرينك اكنجي ميراخورى اولان قدوة الاماجد والاكارم جامع المحامد والمكارم محمد اغا دام مجده يه وزيركز اولان لورنسو اوژين ناردي يازدوغى مكتوب تركجه يه ترجمه اولنوب مطالعه اولندقده ساير معاهده ومصالحه اوزره اولان نصارا قراللرى كبى سز دخى دوستلق وبارشقلق مراد ايدند ككز مسطور اولوب وسابقا دُرزى طايفه سنك رئيسى اولوب سعادتلو پادشاه عالمپناه حضرتلرينه عصيان ايتمكله قوت قاهرهٔ پادشاهى ايله سنجاغى الندن النماغله قاچوب سزه التجا ايدن معن اوغلى امير فخر الدين ايچون بر قوش بر چالي يه صغندقده اول خالي انى صيانت ايلدكى اوزره سزدخى حمايت ايدوب صوچندن كچيلوب حكومتى ابقا اولنماسن شفاعت صورتنده رجا ايلد ككز بيلدرلمش دخى هرنه يازلمش ايسه جمله سنه اطّلاعمز متعلق اولمشدر ايمدى رأى ملك اراكزه معلوم اولا كه سعادتلو پادشاه دين پناه حضرتلرينك خلاف ملتى اولنلر ايله بارشقلق ودوستلغه رضا ويرد كلرى عجز وضرورتدن اولميوب

محضا بيرك و كوجك[1] وجميع موجوداتك خالقى اولان پرور كار احد وصمد تعالى شانه وعظم برهانه رسول بزر كوار عليه الصلوة والسلامه ايندرد كى قران عظيم وفرقان كريم عظّم الله جلاله بارشقلق ايستيانلره عهد وامان ويرمك امر ايتمكله حق تعالى حضرتلرينك امر واجب الاتباعنه امتثال ايدوب مراد كزى پايهٔ سرير اعلا لرينه عرض ايلد كمده سعادتلو پادشاهمز حضرتلرينك رضا ورخصت همايونلرى شول شرطله صادر اولدى كه بارشقلقدن صكره دريا يوزنده قورصانلق ايدن قاليون وبورتون وقدرغه لر كز بالكليه رفع اولنوب يورومبوب اكى طرفدن تجارى امن وامان اوزره كار وكسبلرنده اولوب نفس ومالللرينه اصلا مضرّت ارشميه وتجارت ايچون بيلده بر قاج كميلر معين اولوب اندن زياده كليوب كلنلر دخى محروسهٔ استانبول واسكندريه واسكندرون اسكله لرندن غيرى ليمانلرمزه واطه لره واسكله لره اصلا اوغراميه لر ويانا شميه لر هرنه الوب صاتارلرسه بو اوچ بندرده الوب صاته لر وهر نه قدر موجود مسلمان اسيرلريكز وارايسه اطلاق ايليه سز زيرا مومى اليه وزير كزك مكتوبنده بارشقلق مقرر اولندقدن صكره اسيرلر ايشى قولايدر ديو يازلمشدر ومعنى اوغلي خصوصنده دخى رضاى عاليلرى بويوزدن اولمشدر كه انك اول ديارده اولمه سيله درزى عاصيلرينك عصيانندن امن يوقدر من بعد اول ديارده حاكم اولماسنه جواز كوسترمد كلرى اجلدن نيچه يبلدن برو التزام ايله ذمتنده اولان مال ميرى نك جوابن ويروب

---

(١) بدلاً من كوكك

محاسبه سن كوروب ذمتن پاك ايلد كدن صكره اوزره شفاعت ايلد ككز صوچندن كچوب كناهن عفو ايدوب روم ايلنده بر كزيده سنجاق ويريلوب سزك دخى ناموسكز يرين بولور كاتب اول ديادن مسلمان اسيرلرين الوب كتورن غاشپار خروات نام تاجر مستأمن ايله مكتوب ارسال اولندى عند الوصول بو شروط ايله دوستلق وبارشقلق مراد كز ايسه اصلا تاخير ايتميوب يرار ونامكار ايلچى تدارك ايدوب معجلا ارسال ايليه سز سزك ايله بارشقلغه رضا ويرلمامك بابنده چالشانلرك مغلطه سنه باقميوب ارايه كيروب سعادتلو پاد شاهمز حضرتلرينك بو مرتبه يه رضاى همايونلرين تحصيل ايلدك اكر مراد كز اولور ايسه خيراتينى اوزاتميوب اتمام واستحكامنه اهتمام ايليه سز زياده نديمك لازمدر اشبو مكتوبمز اولو پيغمبرمز محمد مصطفى عليه الصلوة والسلام هجرتنك بيك يكرمى اوچ ربيع مؤخر آينك يكرمى يدنجى كونده يازلمشدر

الختم

راجي لطف الهي نصوح

مدينهٔ محروصهٔ قسطنطينيه

نصوح باشا وزير اعظم

وعلى دائر الختم :

اي بار خدا بحق هستي

شش جيز مرا مدد فرستي

علم وعمل وفراخ دستي

ايمان وامان وتندرستي

واليك تعريبه :

« رسالة نصوح باشا الصدر الاعظم[١]

« افتخار امراء الملة المسيحية . مختار طايفة الامة العيسوية . مصلح مصالح جماهير الفرقة النصرانية . ساحب اذيال المجد والوقار . صاحب دلايل العز والاقتدار، قزما غراندوق تسكانا . ختمت عواقبه بالخير[٢] .

« جواب صديق مخلص

« ان وزيركم لورنسو اوزمباردي كتب الى قدوة الاماجد والاكارم، جامع المحامد والمكارم، محمد آغا دام مجده، كتخدا الباب العالي سابقاً، وميراخور صاحب الدولة والسعادة والشوكة والعظمة السلطان حالاً، اعز الله نصره، كتاباً نقلناه الى التركية . ولما طالعناه عرفنا انكم، كغيركم من الامراء والملوك والامبراطرة، ترغبون في المصالحة والمعاهدة والصداقة مع مولانا السلطان . وهكذا ايضاً رئيس الدروز الامير ابن معن . وبما انه عصى على مولانا السلطان فقد استولينا على بلاده بالقوة الامبراطورية، فهرب ولجأ اليكم فآويتموه مثل العصفور الذي يلجأ الى الاحراش . ثم حاولتم ان تنالوا له العفو والرجوع الى بلاده . وكل ما جاء في كتابكم المذكور اصبح معلوماً لدينا .

« والان اعلموا يا ضابط تسكانا ان صاحب السعادة السلطان حارس الدين قد اصطلح مع ملل مختلفة، لا عن حاجة او عن ضعف، ولكن كما كتب خالق السماء وجميع الموجودات، تعالى شأنه وعظم برهانه، الى محمد رسوله العظيم، صلى الله عليه وسلّم، الذي نشر فرقانه الكريم عظم الله جلاله، « يعطى الصلح لسائله » . فامتثالاً لهذه الوصية انطرحتُ على قدمي صاحب السعادة السلطان . فرضي بهذا الصلح، ورخص به، شرطَ ان ترفعوا من البحار الغلايين والمراكب والاغربة كلها، فيستريح تجارنا

---

(١) هذا العنوان مكتوب بالايطالية على الهامش

(٢) هذه الديباجة واردة بالعربية في النص التركي كما رأيت

وتجاركم، وينصرفوا الى اعمالهم آمنين على اشخاصهم واموالهم . وبخصوص تجارتكم سنتفق على عدد المراكب التي يمكنكم ارسالها سنوياً الى الاستانة والى الاسكندرية والى الاسكندرونة، على ان لا تدخل ثغراً او ترسو في جزيرة غير هذه الثغور الثلاثة. وان تعيدوا الينا الاسرى، لان وزيركم لورنسو اوزمباردي كتب لنا انه متى تمَّ الصلح يصير الاتفاق على قضية الاسرى .

« اما من جهة ابن معن، فاعلموا انه اذا عاد الى بلاده لا تعود الينا الراحة، نظراً لجماعته العصاة . ومولانا السلطان يأبى ارجاعه الى بلاده . بل يأمر ان يأتي الى الاستانة ليقدم حساباً عن اموال البلاد التي ضمنها ويصلح حاله . وبما انكم قد تشفعتم به سنعفو عنه ونخوله الحكم على سنجقية كبيرة في بلاد اليونان . فنكون قدمنا لكم الترضية وحافظنا على شرف كلمتكم له .

« ولهذا اعيد اليكم جسبار الكرواتي، تاجر الاسرى، مزوداً بشروط الصلح لتوقعوها، وتوافقوا على ما تقدم شرحه بدون تأخير . وستجدونه سفيراً هماماً، مخلصاً، فترجعوه الينا باقرب وقت .

« ولا نخفي عليكم ان كثيرين كانوا يعارضون امر هذا الصلح ويعرقلونه . لكني بذلت الجهود والمساعي حتى فزت بما كتبته اليكم . فان شئتم اسرعوا الى انجازه لان « الخير لا يؤجَّل »، بل يصار اليه حالاً وينجَّز . لم يعد لديَّ شيء آخر اقوله لا تعرفونه .

« عن مدينة الاستانة المحروسة في ٢٧ ربيع الثاني ١٠٢٣[1]

الختم	التوقيع
راجي لطف الهي نصوح	نصوح باشا الوزير الاعظم

وعلى دائر الختم : « الهي انت موجود حقاً . لقد اوليتني ست نعم : العلم والعمل والكرم والايمان والامان والصحة[2] » .

---

(١) ٦ حزيران ١٦١٤

(٢) ف ٢٦٢ - ٢٦٤

٢ ـ **الانقلاب السياسي** ـ لا غرو ان فخر الدين لم ترقه هذه الشروط وفضل الانتظار . ونعم ما فعل . لان دولاب السياسة في الاستانة كان سريع الدوران؛ فما عتّم ان انقلب بنصوح باشا ووزارته، ورفع مكانه وزيراً صديقاً للامير .

تجد في الجزء الاول من هـذا الكتاب[1] بضع رسائل سرية واردة الى البلاط التسكاني قبيل سقوط نصوح باشا، تنبئ عن تخوفه من حملة وهمية يعدّها امراء الغرب على السواحل اللبنانية بقيادة فخر الدين . وانه اصدر الاوامر الى الاسطول العثماني بالخروج باكراً لدرء هذا الخطر، وبالتعاون مع احمد الحافظ باشا دمشق في الحملة البرية، التي قادها على لبنان في خريف تلك السنة . بيد ان الحافظ لقي هذه المرة من مقاومة اللبنانيين اهوالاً . فقد هبوا جميعهم في وجهه، خاصة اهالي الشوف، بقيادة الامير يونس وبقية الامراء والمشايخ . فلم يرَ وسيلة للانتقام منهم سوى تخريب البلدان التي مرّ بها . وما زال على ذلك حتى انتهى الى قلعة الشقيف، التي خذل امامها في السنة السابقة . وكان يأمل ان يقع فيها على خزنة الامير . وفيما هو يعدّ العدّة للحصار بلغه خبر مصرع نصوح باشا، الذي خُنق بامر السلطان في ١٧ تشرين الاول ١٦١٤، وقيام محمد باشا والي مصر سابقاً مكانه . وكان صديقاً للامير . فصرف الحافظ الجيش، وعاد الى دمشق، حيث ادركه امر العزل[2] .

ولما بلغت هـذه البشرى الامير كتب الى ذويه لينتهزوا الفرصة ويجسوا نبض الوزارة الجديدة . وقد اشار الى هـذه الكتب في ثلاث رسائل وجدناها مترجمة الى الايطالية ترجمة تكاد تكون حرفية، وجهها في اواسط تموز ١٦١٥ الى كتخداه مصطفى وولده الامير علي والشيخ يوسف، فرأينا ان نعرب للقراء الاولى والثانية لاهميتها .

اولاً : كتابه الى كتخداه . واهم هذه الرسائل تلك التي كتبها الى كتخداه مصطفى حثه فيها على التوجه الى الاستانة ليسعى في مصلحته لدى الوزارة الجديدة . واليك تعريبها :

---

(١) ف ٢٦٤ و٢٦٥

(٢) خ ٣٤ - ٣٩

« هذه الرسالة كتبها فخر الدين الى مستشاره مصطفى

« الى صديقنا العزيز مصطفى كتخدانا، حرسه المولى . اولاً شوقنا الزائد لرؤياك سالماً، ان شاء الله تعالى . ثانياً . انك تعرف، وكل انسان مستقيم ومحب للحقيقة يعرف اننا لم نتهامل ابداً في تقديم الخدم[1] الى عظمة مولانا السلطان الشريفة، ولا الى وزرائه الموقتين . وكان في نيتنا ان نزيد المال السلطاني، وقد دفعنا ايضاً هذا المال سنة سلفاً . وسنة اخرى سددناه عن الشعب رأفة برعايا عظمته الشريفة . فلا امير ولا سنجق قدم مثلنا الخدم بهذا المقدار الى السلطان والى وزرائه . لاسيما في عهد نصوح باشا . فضلاً عن النفقات التي تكبدناها لما اوفدناك الى ديار بكر، وأوفدنا برنلي علي جاويش لمواجهة نصوح باشا في حلب، ولما ارسلناك ايضاً الى الباب العالي . كل هذا صار معلوماً لديك . وتعرف ايضاً كيف قصد ولدنا الامير علي الى المرحوم مراد باشا في حلب[2]، وكيف جهزنا كمية كبيرة من الخدم الى جلالته الشريفة . وقبل ذلك ارسلنا مستشارنا كيوان الى الباب العالي ثلاث مرات . ولا نعرف لنا ذنباً يستحق كل الشدائد التي احتملناها . والحق يقال « لا عبد بلا ذنب »، والعقاب يجب ان يتعادل مع الذنب . وللحق سبحانه ان يرسل خليقته الى جهنم بدون حساب . وبقدرته السامية له ايضاً ان يحاسب عبيده، مبيناً لهم ما فعلوه من الخير وارتكبوه من الشر، ويقاصهم كثيراً ام قليلاً .

« ولكن ماذا نقول . ان ظلم نصوح باشا فاق الحد . حتى ان اخصاء الغازي مراد باشا لم يفلتوا من يده . وانت تعلم انه الوحيد الذي تجاسر على دوس املاك بني عثمان وتخريبها . ولكن العناية الالهية قد سمحت والحمد لها ان تنزع نعمته . وانت وغيرك قرأتم الاخبار والتواريخ السابقة وعرفتم ان اكبر قصاص يناله المرء هو نزع النعمة منه . وتعلم ايضاً ما نالنا من الاضطهاد نحن واتباعنا وبلادنا الخاصة بمولانا السلطان . فلو احتل بر الشام مئة الف جندي من النصارى، لما انزلوا بها من الخراب والدمار ما نزل بها في عهد المذكور .

---

(١) اي الهدايا . ر ص ٦٧

(٢) في ايلول السنة ١٦٠٧ . خ ٦ ف ١٤٧ حاشية ١

« بيد ان عاقبة ذلك كله معروفة عند الله تعالى وتبارك . وهو الذي يمهد هذه الصعوبات ويحوّل الى الخير ما سمح به من الشر . فله الحمد . وانت، مع ما احتملته في الاستانة[1]، لم تهمل مكاتبتنا واطلاعنا على ما نحن بحاجة الى معرفته . وهكذا فعلت لما عدتَ منها ووصلت الى حلب والى دمشق . ولما سافر علي الظافري والشيخ يزبك في غلايين الغراندوق، حملناهما رسائل كثيرة لعدة امكنة، وكتبنا فيها اكثر من اللازم . فوصلا الى الوطن سالمين مع ما كانا يحملانه . ولما عادت الغلايين اخذنا من صيدا رسائل كتبها بعض الاصدقاء المخلصين، اخبرونا فيها عن كل ما جرى . وكانت مؤرخة في ٢٠ شعبان، اعني آب[2] . ومنها علمنا ان باشا دمشق، لما كان في قب الياس، ارسل بعض العساكر لحرق بهريه وعين زحلتا وكفره[3] . وقد اجبنا على هذه الرسائل، واهملنا كتابة العناوين، حتى اذا وقعت في ايدي الاعداء لا يعرفون اصحابها . لاننا نراعي الصديق كنفسنا . مع ان مصيبتنا نقص الاصدقاء . فليعطنا الرب من القليل كفوءنا . وبعد هذه الرسائل لم نتلقَّ من الوطن غيرها البتة، لنعرف موقفنا من الحوادث . ولولا تلك الرسالة لما عرفنا شيئاً من اخبار البلاد .

« وبعد وصول الشيخ يزبك لم نأخذ من الوطن خلاف تلك الرسالة المؤرخة في ٢٠ شعبان . الرب يكافئ صاحبها خيراً . بيد اننا كنا نودّ لو كتب الينا مرة ثانية . ولعله ظن ان غيره قد كتب الينا . ولولا ذلك لما تأخر عن الكتابة . لانه قال في رسالته : « لا شك ان الشيخ يزبك كتب لكم » . مع اننا لم نتسلم شيئاً لا من الشيخ يزبك ولا من غيره مع شدة شوقنا الى اخبار الوطن، لاسيما بعد ان تولى الوزارة محمد باشا، الذي كان في مصر، بدلاً من نصوح باشا .

« وفي اواسط جمادى الثاني ٢٤ بعد الالف[4] وصل الى هذه الجهات قنصل صيدا واخبرنا انه تعين على قنصلية طرابلس وعكار، بعد مبارحتنا للوطن باربعة اشهر . وسألناه عن اخبار البلاد فلم نفز منه بما كنا نتوق الى معرفته، لانه لم يكن واقفاً على

---

(١) خ ١١

(٢) نرجح ان كلمة آب للمترجم . وقد حشر بين الاسطر كثيراً من هذه الشروحات

(٣) من املاك الامير . هذه الحاشية اصيلة

(٤) ١٢ تموز ١٦١٥

كل الحوادث والاحوال . بل قال لنا « لما كنتُ في عكار اقترب من شاطئها مركب قرصان . فقصدت اليه في قارب لعلي اجد فيه أسرى . فاذا به من قرصان بلاد المغرب . فاخذوني الى تونس، حيث قابلت الحاكم واخبرته بأمري فاطلقني . وركبتُ من هناك الى ليثورنو » . فسألته عما يعرفه من اخبار الوطن . فاجابني : « نزل به ضيق عظيم . فاخوك الامير يونس وخالك الامير منذر ذهبا الى بانياس عند الامير علي ابنك . وبعد الاتفاق[1] عادا الى قصرك في الشوف . وبقي ابنك الامير علي في بانياس . وحافظ باشا رجع الى دمشق، والبستانجي باشا قصد الى الباب العالي، واصطحب معه مصطفى كتخدا . والشيخ يوسف تركته في صيدا ». وسألته عن الامير علي بن الشهاب . فاجابني « في وقت المحنة كان يتردد من مكان الى آخر، ووقع القتال بينه وبين عساكر الباشا » . واردف بقوله : « انا عائد الى صيدا، فهل عندك رسائل » . فاجبناه لقد كتبنا الى الوطن وارسلنا نسخة من الرسائل الواردة الينا من علي باشا زوج كريمة مراد باشا[2] مع كل الاخبار التي تلقيناها فقال « اذا كتبت شيئاً اوصلناه » . فارسلنا معه رسائل لا تضر ولا تنفع . وان شاء الله لا يصير الا الخير . علي شلبي[3] بخير يقبل يديك ... والباقي دعاء .

« كتب في اواسط جمادى الثاني اعني ١٥ تموز سنة ٢٤ بعد الالف[4] . . . . .

. . . . . .

« طيه نسخة من رسالة علي باشا صهر المرحوم مراد باشا . لا تتأخر عن مفاوضة سعادته في تدبير الامور . فاتح ايضاً بالامر البستانجي باشا، لاننا علمنا انه رجل مستقيم . وتكلم على الاخص مع الصدر الاعظم محمد باشا، صان المولى سمعته، ومع اكابر الدولة بما يمكن عمله . وهذا اوان السعي . وكفى ما تقدم لفطنتك ونشاطك ...

الامير فخر الدين

« صح ارسلنا هذا الكتاب ليصلك اينما كنت . ولو اضطر الامر لاجرة ساعٍ خاص[5] ».

---

(١) مع الحافظ باشا

(٢) في الاصل المكرمة honorata . الا اذا عنى ارملة مراد باشا وهو بعيد، لانه عمر طويلًا

(٣) ابن مصطفى، صاحب الرسالة

(٤) ١٦١٥

(٥) ف ٢٦٥ - ٢٦٩

ثانياً : كتابه الى ولده . واحدى الرسائل الثلاث موجهة الى الشيخ يوسف[1]، يخبره فيها ان القرصان المالطيين قد اسروا اخاه وجاؤوا به الى جزيرتهم، ومنها كتب اليه كتاباً ضمّنه ما يعرفه من اخبار البلاد . وذكّر الامير الشيخ يوسف انه كتب له سابقاً لما كان في مصر وقد عرّفه بعدئذ القنصل الفرنسوي في صيدا انه عاد الى هذه المدينة .

وكتب الامير ايضاً الى ولده الامير علي، واشرك في العنوان حسين يازجي، قائد قلعة بانياس، حيث كان ولده . وفي الكتاب تكرار لبعض الاخبار الواردة في رسالته الى مصطفى، لبعد هؤلاء عن هذا . وقد اهملناها . واليك تعريب ما لم يرد في الرسالة السابقة :

« ما نبديه الى حضرة ولدنا العزيز الامير علي المكرم، والى حسين يازجي حفظهما المولى تعالى اولاً مزيد الشوق الى رؤياكما سالمين معافين . ان شاء الله تعالى . ثانياً . نعرفكما اننا كتبنا اليكما مع علي الظافري والشيخ يزبك لما عادا بغلايين الغراندوق . ووجهنا اليكما ايضاً رسائل بصحبة موصلي، خادم ارناووت مصطفى بلوكباشي، وغيرها مع خادمنا قابيل . ولا بد ان تكونا قد اخذتاها، لان جميع هؤلاء وصلوا سالمين الى الوطن . وكنا تلقينا من علي باشا صهر مراد باشا كتاباً اخبرنا فيه عن احوال نصوح باشا . فارسلنا لكما منه نسخة . ثم تسلمنا من علي باشا ذاته رسالة اخرى كلف معتوق، عبد الغراندوق، ايصالها الينا . فارسلها مع محمد بن العيسوق وعلي كاور لما عادا بمركب الترتانا . فارسلنا اليكما نسخة من هذه الرسالة ايضاً .

« ثم عادت الينا الغلايين واخبرنا قائدها انه انزل في الدامور جميع رجالنا سالمين . وكان بودّه ان يجلب لنا اجوبة الرسائل التي وجهناها مع رجالنا المذكورين، لولا معاكسة الريح لهم . فقد ظلوا يكافحونها اربعة اشهر، وقاسوا منها الاهوال حتى بلغوا ليفورنو .

« وبعد ذلك اخذنا رسالة من الشيخ ناصر اخي الشيخ يوسف يخبرنا فيها عن أسره . فارسلنا له الجواب وطويناه على كتاب اليكما، والححنا عليه كثيراً في ايصاله

---

(١) لعله المسلماني، الذي ولاه علي غزير قبل سفره (خ ١٩)، وحمل اليه سنة ١٦١٥ فرمان العفو حتى فلورنسا (خ ٤٣) . وكان مسيحياً، لان قريباً له كان يدعى ميخائيل (خ ٥٢)

باي طريقة كانت . وبعد عودة الشيخ يزبك وعلي الظافري كتبنا اليكما اربع مرات . فان وصلت هذه الرسائل كان به، والا فالامر ليس بذي بال، لان ما يهمكما معرفته ضمّناه الرسائل الموجهة اليكما مع رجالنا العائدين بغلايين الغراندوق . بيد اننا لم نتلقَّ على كل هذه الرسائل جواباً خلاف الذي كتبتماه مع ابن العيسوق لما عاد بالترتانا .

« وقد بلغتنا رسالة مؤرخة في ٢٠ شعبان، حين قصد الحافظ باشا الى قب الياس[1] وبستانجي باشا وصل الى صيدا فبيروت بصحبة مصطفى كتخدانا . وبعدها لم نأخذ كتاباً او خبراً جديداً، مع شوقنا الى معرفة ما جرى بعد موت نصوح باشا وقيام محمد باشا مكانه . وقد قابلنا قنصل صيدا الفرنسوي وعلمنا منه ان رسائل وُجهت الينا من الوطن مع مركب أسره القرصان . واخبرنا ايضاً ان طرابلس وعكار قد التحقتا بولاية دمشق، وان حاكماً مستقلًّا اقيم على صفد . وان بيروت وغزير اصبحتا لابن سيفا . وان مظفر في بيته . وقد وقعت بينه وبين عسكر الباشا بعض مناوشات . وسألنا القنصل المذكور « هل انت مسرور بهذه الاخبار » . فاجبناه « لا بد لنا ان نعرف السارَّة منها والغير السارَّة . لان الدنيا قائمة على ذلك » . وقد اودعناه هذه الرسالة المطوية على نسخة من رسالة علي باشا، بعد ان عاهدنا على ايصالها اليكما باي طريقة كانت . وبعد ان تتلى عليكما اطلعا عليها وعلى نسخة رسالة علي باشا مَن يجب اطلاعه عليها . وسلما عنا على كل واحد حسب مقامه، كبيراً كان ام صغيراً .

« كتبت في ١٥ تموز سنة ٢٤ بعد الالف .

« صح لم يكن في وسعنا ان نشرح في هذا الكتاب اكثر مما شرحناه . اعلما ذلك . ولم نتمكن من الكتابة الى كل شخص . اولاً لان هذا الكتاب يغني عن الجميع . فمن قرأه كأنه تلقى منا كتاباً خاصًّا به . ثانياً لان القنصل كان مستعجلًا . وقد ارسلنا معه كتاباً الى مصطفى كتخدانا مطويًّا على نسخة من كتاب علي باشا الينا . ارسلاه اليه حيث هو . واذا لزم الامر كلّفا ايصاله ساعياً خاصًّا . ولا بأس من ايفاده حتى الاستانة اذا كان كتخدانا هناك . ولا تظنا اننا لا نكترث للمساعي التي تبذل لدى الباب العالي، او لدى اي جهة كانت بكل الوسائل الممكنة . ولا حاجة

---

(١) خ ٣٤

لحثكما على السير بفطنة في هـذا السبيل . ولا تدعا احداً يلقي عليكما الوهم، او يؤثر عليكما بأي نوع كان . وان شاء المولى الفرج قريب، وليس عند الله امر عسير. فلا تقطعا الامل بل عليكما الصبر في الضيق فبعد الضيق الفرج[1] ».

٣ ـ **فرمان العفو** ـ لم ينتظر الامير نتيجة مساعي كتخداه مصطفى بل كتب الى جسبار الكرواتي، سفير نصوح باشا لدى الغراندوق[2]، راجياً ان يفاتح الوزير علي باشا بأمره . ولا نعرف اذا كان علي باشا المذكور، هو صاحب الرسائل التي اشار اليها الامير مراراً في كتابيه السابقين؛ ام هو ذاك القبطان، الذي جاء بالاسطول العثماني الى صيدا في السنة ١٦١٩، ام انه كلاهما، ام غيرهما . بيد ان سعي هذا الباشا قد اثمر خيراً، وفاز للامير بفرمان العفو والرجوع الى وطنه ومنصبه . وقد بعث به الباشا اليه على يد جركس محمد باشا، والي دمشق الجديد، فسلمه الى ذوي الامير، والارجح الى والدته التي اطلقها حين وصوله، فبعثت به بدورها الى ولدها في تسكانا. بيد ان الرسولين بلغا الى ليڤورنو بعد سفر الامير منها الى صقلية . وفي آخر تموز، اي بعد انتقاله الى صقلية، وجه اليه علي باشا المذكور واحمد باشا كتخداه رسالتين يبشرانه فيهما بصدور العفو عنه . ولو تلقاهما في تسكانا لما ارتكب خطأ اللجوء الى ملك اسبانيا عدوة تركيا، فاضطر الى تحمل ثلاث سنين اخرى في المنفى . واليك نص هاتين الرسالتين مع تعريب كل منهما .

اولاً : رسالة علي باشا :

رعايتلو دوستمز مان اوغلي حضورلرينه دوستلوغه ومحبّته لايق اولدوغي اوزره ادا اولندقدن صكره انها اولنور كه بو طرفه برادیرم رعايتلو غاشپار بكه ارسال ايلدوكوز كاغديكزده اولان التماسيكز اميلى ايله منتها دخى غاشپار بيك استانهٔ سعادتده ايكن احوالوكوز

(١) ف ٢٦٩ ـ ٢٧٢

(٢) ر ص ٢٣٩ ولعل الغراندوق نفسه كتب الى المذكور يوصيه بفخر الدين

بو دوستوكوزه اعلام ايلمش ايدى اكا بناءً دخى مستقيم واجب الرعايه اولدوغوكوزي سعادتلو وعظمتلو ويوجه همتلو پادشاه عالم پناه حضرتلرينك صدر اعظمي سعادتلو وعزتلو محمد پاشا حضرتلري وساير لازم اولان يرلره بيلدوروب رجا ايلمش ايدك وبوخصوصده انلرك عهدلرين آلوب وبالذات سعادتلو وعظمتلو ويوجه همتلو پاشاده عالم پناه حضرتلرينك معلوم شريفلري اولوب هر احوالوكوزي بو دوستوكوزه فرمان بيورمشلردر امدي معلومكز اولا كيم ارسال ايلدوكوكوز رعايتلو غاشبار بكك كاغنده طرفمزدن التماس ايلدوكوكوز اولان بو دفع ويره كاغدي تحرير اولنوب كوندرلمشدر وصولنده مراد وقصد ايلدوكوكوز كبي .... كلمك مراديكز ايسه بر عهدم وايمانمده كلهسز وسيزكله كلنلردن برفرده ضرر وذيان اولنميوب ان شا الله مراد كز ايله ... مند اولورسز خاطريكز خوش دونه قادر اولندوغمز سيزدن دريغ ايلمزز باقي والدعا

وهاك تعريبها :

« رعايتلو حضرة الامير ابن معن

« بعد توجيه العبارات اللائقة بالمحبة، فليعلم الاخ المحترم ابن معن[1] ما يلي :

« وصل التماسك المرسل طي الرسالة الموجهة الى رعايتلو جسبار بك صديقي . وهو لما جاء الى الاستانة اخبرني باحوالك . فعرضت اللازم الى صاحب السعادة محمد باشا، وزير صاحب السعادة والعظمة والهمة السلطان حامي العالم، والى ساير ارباب الدولة، واكدت لهم انك رجل مستقيم وتستحق الرعاية . وقدمت الرجاء اليهم في امرك .

---

(١) مان اوغلى

قبلت منهم العهد . ولما علم بذلك صاحب الجلالة والسعادة السلطان حامي العالم فوض امرك الى صديقك هذا[1] .

« والان اخبرك ان فرمان العفو قد كتب وأرسل . وحالما تتسلمه، اذا كنت راغباً في المجيء، تعالَ على عهدتي بلا خوف ولا قلق، انت والذين يصحبونك . وان شاء الله تنال أمنيتك . كن مرتاح البال . اننا لا نرفض لك طلباً في استطاعتنا . والسلام » .

ثانياً : رسالة احمد باشا :

عزتلو قرنداشم مان اوغلى حضرتلرينك حضور عاليلرينه

عزتلو وسعادتلو قرنداشم حضرتلرينك حضور فايض النورلرينه درر دعوات عنبر نسيم وغرر تسليمات عبهر شميم ايثارندن صكره انهاء محب قديم ومخلص مستقيم بودر كه اكر بو جانب محبكز احوالندن سؤال بيورلمق سزا بيوريلورسه بحمد الله تعالى عالى همتكز بركاتندن الآن صحت صحتده موجود اولوب ديدار شريفكزه مشتاق عظيم اوزره اولدوغمز محل ريب وجاى دكلدر سزولك حال شريفكز وعنصر لطيفكز ايوجه خوشجه سز دخي صحت وصفاده اولوب بارى خدا وجود شريفكز الم روزكاردن مصون دونه بعده بو محبكز عزتلو پادشاه عالمپناه حضرتلرينك فرمان شريفلرى ايله تعيين اولنوب الچى لك ايله رمّا چاسارينه كلوب ملاقات اولدولمدن صفا وسرور ومحبتلر ايدوب كما في الاول باريشق وصلح وسلام اولمق زيادەلر اوزره در وبوندن اول سعادتلو پادشاه ظل الله طال بقاه حضرتلرينك امر شريفلريله غاشپار پچه كلوب اندن آستانهٔ سعادته كلدكلرنده وزير

---

(١) اي الكاتب

اعظم حضرتلرينه وشيخ اسلام وجميع وزرا حضرتلرينه وبزوم صاحب دولت افندمز عـلي پاشا حضرتلرينه احوالكز سويليوب واحوالكز حق تعبير ايله سعادتلو پادشاه عالمپناه حضرتلرينه تلخيص اولندقده حقكزده سويلنن خلاف انها اولوب غيري واقع اولمقه اذعان سعادت مقرونلري اولدقده عفو بيوروب خط همايون سعادت مقرون ايلـه اولككز ويكلككز بيوروب وصاحب دولت افندمز حضرتلرينـه احوالكز تفويض اولنمشدر انـده بنم عزتلو قرنداشم خداى متعال حقيچون هيچ الم چكميوب بو محبكزه پچه كلوب ملاقات اولهسز اندن آستانهٔ سعادته معـاً كيدروز حضور شريفلرى آستانه ويكلش اكلدوب بونحه فلاكتلر ومقارتلر كتورن جزاسن بولوب ايتدوكين بولدي جميع وزرا وشيخ اسلام وساير علما افنديلر عهدلرينه اتمشلردركه ينه كما كان بكلككز واولكككز ابقا ومقرر اولوب پادشاه عالمپنـاه حضرتلرينك نيجه الطاف لانها يلرينه مظهر دوشهسز امان بنم عزتلو قرنداشم تاخـيره جواز كوسترلميوب جانب محبكزه كلمكه سعى وهمت بيوره سزخدايه معلومدر كه دوستكز وخيرخواهكز بز وصاحب دولت افندمز حضرتلرينك عهد ويمين كاغدي عينيله حضور شريفكزه ارسال اولندى كه اعتماد واعتقادوكوز اولوب دقيقـه فوت اتميوب كلمكه سعى ايدهسز بر خطا (؟) وخطر كلميوب اولكيدن زياده رعايتلر اولدوغنه بز دخي كفيليز باقي دعا عمر ودولت وقدر وشوكت در

محب مخلص
احمد كتخداء
وزير علي باشا

وعلى الهامش :

ان شا الله بنم عزتلو قرنداشم پادشاه عالمبناه حضرتلريناك نيجه نيجه احسان شريفلرينه مظهر دوشه‌سز زيرا حضرتكزه بهتان عظيم اولدوغي اذعان سعادت مقرونلرى اولمشدر كوكلينز خوش دونه‌سز

واليك تعريبها :

« صاحب العزة حضرة الاخ ابن معن

« غب بث الادعية كنسيم العنبر والسلامات العاطرة كالنرجس، ننهي الى حضرة اخي المحب القديم والمخلص المستقيم ما يلي :

« اذا تكرمت بالسؤال عن احوال صديقك اقول اني بحمد الله ونظرك متمتع بالصحة ومشتاق الى مشاهدتك على اتم العافية واحسن حال . حفظك المولى من كل ألم وسوء .

« اما بعد فصديقك قد تعين سفيراً، بفرمان شريف اصدره صاحب العزة السلطان حامي العالمين . وبعد ان واجهت القيصر الروماني[1] عُقد الصلح وصار السلام واقيمت الافراح والاعياد . ثم ان جسبار منذ مدة قصيرة جاء الى بيش[2] بامر شريف من صاحب السعادة السلطان، ظل الله على الارض، طال بقاؤه . ثم عاد الى الاستانة، حيث شرح احوالك لسعادة الوزير الاعظم وحضرة شيخ الاسلام[3]، ولجميع الوزراء ولصاحب الدولة علي باشا . ولما عُرضت قضيتك باختصار امام سعادة السلطان، حامي العالمين، اصدر امره بخط همايوني ان تعود الى منصبك وبلادك وفوّض امرك الى صاحب الدولة علي باشا .

---

(١) امبراطور النمسا

(٢) من اعمال هنغاريا Pec

(٣) كان لفخر الدين اكبر الوسطاء، كما ذكر سانتي في تقريره . ر ص ٢٠٩

« والان يا اخي العزيز باسم الله يمكنك ان تأتي الى بيش عند صديقك هذا، دون ان يساورك قلق . ومن هنا نذهب سوية الى الاستانة دار السعادة . فالذين سببوا لك هذه المصائب قد لقوا قصاصهم[1] . والجميع، الوزراء وشيخ الاسلام وسائر العلماء، قد اخذوا العهود على انفسهم . وستنال عن جديد منصبك وتعود الى بلادك . وتكون موضع عطف السلطان حامي العالم . فهيّا يا اخي العزيز لا تتأخر عن القدوم الى صديقك . يعلم الله اني وصاحب الدولة علي باشا قد ارسلنا اليك عهد الامان واليمين . كن على ثقة ولا تؤجل مجيئك دقيقة واحدة . فلا حرج عليك . بل انك تصبح ذا مكانة واعتبار اكثر من ذي قبل . وانا ايضاً ضامن لك ذلك . الباقي دعاء بطول البقاء والعز والقوة .

محب مخلص
احمد كتخدا الوزير علي باشا

وعلى الهامش : « ان شاء الله يا أخي العزيز ستكون لدى السلطان، حامي العالم، موضوع عطف ونعم كثيرة . فقد فهم انك ذهبت ضحية دسيسة كبيرة[2] ».

---

(١) يشير الى مصرع نصوح باشا وعزل احمد باشا الحافظ عن دمشق

(٢) ف ٢٧٣ – ٢٧٥

الفصل السادس

الامير في ايطاليا الجنوبية

١ ـ **مرامي السياسة الاسبانية** ـ كانت اسبانيا في أوج عزها قوة وثروة وتبسطاً . وقد وضعت يدها على مقاطعات صقلية وپالرمو ونابولي، من اعمال ايطاليا الجنوبية . ولملكها في كل منها نائب . وكانت ايضاً من الدّ اعداء الدولة العثمانية، واشدّ عضو في الحِلف الصغير[١]، المؤلف منها ومن الكرسي الرسولي، ومن دولتي تسكانا وجنوڤا، ومن فرسان جزيرة مالطه؛ وغايته حماية النصرانية من تعدّي الاتراك ومن خطر توسعهم في اوربا .

ولما اصطلح الباب العالي مع امبراطور النمسا، كما جاء في رسالة احمد باشا الى فخر الدين[٢]، وارتبط بالمعاهدات السياسية والتجارية مع اغلب الدول الاوربية، كما قال نصوح باشا في كتابه الى الغراندوق[٣]، رأى ان يوجه همه لكسر شوكة اسبانيا، او على الاقل لمنع اسطولها من التعدي على مراكبه التجارية والحربية وعلى شواطئه وجزره وموانئه . فقرر ان يهاجم سواحل صقلية . فخطرت للدوق دُسّونا، نائب ملك اسبانيا في هذه المقاطعة، فكرة استحضار الامير فخر الدين اليه، ليوهم الباب العالي بحملة يعدّها بقيادة هذا الامير على شواطئ فلسطين ولبنان وسوريا، فتضطر الدولة العثمانية الى تحويل اسطولها عن سواحله الى هذه الشواطئ درءاً للخطر الموهوم . فتم له ذلك على أهون سبيل .

واقدم حالاً على تنفيذ خطته بأن كلف السفير الاسباني في جنوڤا المدعو ڤيڤاس[٤]

---

(١) La piccola lega

(٢) ر ص ٢٥٠

(٣) ر ص ٢٣٨

(٤) Vivas

ان يتعاطى مع الامير مشروع حضوره الى مسينا، عاصمة صقلية، وان يعده باسم الملك الاسباني بمساعدته على استعادة منصبه في لبنان، على ان يؤيده الامير في احتلال الاراضي المقدسة .

وكان احد رؤساء المراكب التجارية، المدعو يعقوب الاسود[١]، قد جلب للامير رسائل من ذويه، وحمل اليهم اجوبته، فوجه ڤيڤاس هذه المهمة، ووجه اليه كتاباً مؤرخاً في ١٢ حزيران ١٦١٥، حثه فيه ان يحمل الامير على توجيه كتاب الى ملك اسبانيا يسأله مساعدته على استعادة منصبه، ويعده من جهته بان يساعده جهده على احتلال الاراضي المقدسة . وكتب السفير الى الامير نفسه بهذا الصدد .

بيد ان فخر الدين ابى التعهد بشيء ورفض حتى الكتابة الى الملك الاسباني . ونزولاً على الحاح يعقوب اجاب السفير جواباً «لا يضر ولا ينفع»، كما عبّر في رسالته الى ولده الامير علي[٢] ؛ هو عبارة عن قصة سردها للمذكور، اخبره فيها عن خدمة يعقوب له في جلب الرسائل واخذ الاجوبة، وعن طلبه اليه ان يسلّمه كتاباً يوصله الى الملك، واردف بقوله « فاجبته ان الغراندوق اوصاني بان استعد للسفر الى مسينا على ظهر احد غلايينه القاصدة اليها . ولما كان سموه قد اشار عليّ بالسفر الى مسينا، فلا بد ان يكون هذا السفر في مصلحتي . فانا عازم على ان لا اعمل شيئاً بدون رضاه . فقد غمرني بفضله وما زال شاملني بعنايته . ولما كان سموه قد اشار عليّ بالسفر فلا ارى حاجة للكتابة الى ملك اسبانيا[٣] » . فاجابني المذكور « اذا كنت غير راغب في الكتابة الى جلالة الملك، فاكتب على الاقل الى سفيره، ليعرف اني قمتُ بمهمتي لديك ». ولما كان طلبه هذا في محله سطّرتُ اليك هذه الاحرف راجياً ان تبقيني دائماً في ذاكرتك حيثما كنتُ، هنا ام في مسينا . واذا شئت ان تجيبني سلم جوابك الى يعقوب المذكور، لانه صديقي وخادم امين لسعادتك » .

---

(١) Jacomo Negro

(٢) ر ص ٢٤٣

(٣) جاء في مفكرات الامير المنشورة في الخالدي، « بينما كان الامير في فيرنسيا طلب ملك اسبانيا من الغراندوكا ان يرسل الامير الى مسينا . فلما فاتح الغراندوكا الامير اجابه : ان امرتنا نروح . فقالوا له : نحن لا نكلفك لا في الرواح ولا في الاقامة . اغربتنا رايحه الى مسينا [لتنضم الى الاسطول الاسباني حليفها] انكان لك خاطر حتى نرسلك بها . فاعطى الامير رضا بذلك » (خ ٢٢٦)

فاجابه السفير في ٩ تموز « كنتُ دائماً متشوقاً الى خدمة مصالح سعادتك والسعي وراء نجاحها . وقد سررت الان لعلمي ان الغراندوق اشار عليك بالسفر الى مسينا . واني واثق ان سموه لا يكتفي بهـذه المشورة، بل يتجاوزها الى توصية جلالته بك، ليقدم لك من المساعدات ما انت بحاجة اليه . واني اعدك بمواصلة السعي الذي باشرتُه، ليسير هذا المشروع السير المأمول . اما سعادتك فابذل جهدك في سبيله بكل اخلاص حسب عوائدك الحميدة، وما يتطلبه منك واجب الوعد[1] . واملي بالله انك عائد الى منصبك وواجد في بلادك الراحة والامان، وان يرتاح الجميع الى هذا العمل .

« وساكتب الى نائب الملك في صقلية والى غيره بأن يخدموا سعادتك . واوصيك بان تصحب معك الرئيس يعقوب، لانه امين وشريف . وارى من الضرورة بمكان ان تستبقي الحاج كيوان مكانه، الى ان تنجلي نتيجة هذا المشروع، لان مجيئه قبل هذا الميعاد عائد على هذا المشروع بالضرر » .

ويظهر ان السفير كان متخوفاً من تأثير الحاج كيوان على نفس الامير، وراغباً ان يترك لشور مندوبه يعقوب المجال وحده . فكتب الى الحاج كيوان، رداً على كتاب له فاثنى عليه، ونصحه ان يبقى في تسكانا حتى ظهور نتيجة المساعي المذكورة[2] .

٢ ـ **الامير في مسينا** ـ قبل ان يبارح الامير فلورنسا كتب في ٢٣ تموز ١٦١٧ الى الغراندوق قزما الثاني يشكر له ضيافته ولطفه وحمايته، ويعاهده على حفظ جميله ما دام حياً . ومما قاله انه مسافر الى مسينا « حسب اشارته » . بيد ان كاتب اسرار الغراندوق لم يرضَ بهذه العبارة؛ فاستكتب الامير كتاباً يطلب فيه من الغراندوق السماح له بالسفر في غلايينه مع ذويه، حتى اذا بلغ مسينا تركوه وشأنه . ويختم بطلب توصيته الى نائب الملك .

---

(١) لم يعِد الامير شيئاً، حسب تصريحه السابق . بيد ان السفير اراد ان يعتبر موقف الامير من قبول الدعوة وعداً، ليقوم المشروع على اساس ما

(٢) ف ٢٧٥ ـ ٢٧٨ . وقد ورد في مفكرة الخالدي ان « الحاج كيوان ما طاوع في الرواح مع الامير » ؛ وهو، كما رأيت، مخالف للواقع

وودع الغراندوق الامير وداعاً رقيقاً، واهدى اليه، كما جاء في مفكرة الخالدي، سلسلة من ذهب تساوي ثمانئة ريال[١]. ووفّر له ولاسرته المؤن اللازمة للطريق. وافضى الى اميرال اسطوله بكلام يبلّغه النائب، ليحسن وفادة الامير ويعامله احسن معاملة. وزوّده كتاباً اليه بهذا المعنى. فسافر الامير من ليڤورنو في اواخر شهر تموز المذكور[٢].

وفي ٦ آب كتب الاميرال من مسينا يخبر الغراندوق بدخوله ذلك الثغر في الصباح نفسه. وان الامير لدى بلوغه نابولي قابل نائب الملك فيها، واختلى معه مدة استخدم النائب في اثنائها ترجمانه الخاص، بدلاً من الترجمان التسكاني. مما يدل على ان الحديث تناول اسراراً اراد النائب ان يخفيها عن ذوي الغراندوق. ولا شك انها كانت تحوم حول مرامي السياسة الاسبانية في الشرق. وقد عرفنا منها مشروع احتلال الاسطول الاسباني لصيدا.

وسأله الامير ان يوصي به نائب الملك في مسينا ليضع تحت تصرفه مركبين، يقصد بهما الى لبنان لرؤية اهله وبلاده. وكان في نابولي كردينال من اسرة سفورتسا[٣] اظهر رغبته في مواجهة الامير. فتمنع.

وكان الدوق دسونا غائباً عن مسينا، فقُدمت للامير عربة فخمة يخدمها ستة من السواس ليتنزه في المدينة ويظهر فيها بمظهر لائق بمقامه.

وفي ١١ آب كتب الاميرال كتاباً آخر الى كاتب اسرار الغراندوق جاء فيه « من بضعة ايام كتبت لك اني سافرت من ليڤورنو باربعة اغربة، قاصداً پالرمو. ولما بلغنا نصف الطريق تقابلنا وحضرة دوق دسونا نائب الملك، فذهبتُ حالاً لتقديم واجباتي واصطحبت معي السيد الامير فخر الدين. وبلّغت الدوق ما امرني سيدي بتبليغه بخصوص الامير. ولما وصلنا الى مسينا قصدت الى سعادته ورجوته اصدار الاوامر بشأن الامير، لانه يرغب في انزال النساء والاطفال حالاً، لما قاسينه في البحر من الضيق. فسألني

---

(١) خ ٢٢٦

(٢) يقول ماريتي انه « سافر في ٢٦ تموز ١٦١٥ بعد ان قضى في تسكانا عشرين شهراً وثلثة وعشرين يوماً »

(٣) Sforza وهي اسرة شهيرة حكمت ميلانو في شمال ايطاليا

سعادته بدقة عن الطريقة التي كان يعامله بها الغراندوق، ففصلتها لـه دون زيادة ولا نقصان . فامر حالاً بان ينزلوه احسن بيوت الاسكلة وعين له راتباً لمعاشه[١] . فنزل امس مساء من المركب . ونقل هذا الصباح اثاثه، ولم يفقد منه رأس دبّوس . وذهب اليوم لتناول الغداء على مائدة الدوق » .

وتجد في مفكرة الخالدي[٢] ان الدوق نزل عنـد رغبة الامير واركبه اغربته المسافرة الى الشرق للقرص كعادتها . فاقلته حتى صيدا، حيث توارد الجماهير، كباراً وصغاراً، للسلام عليه . وفي عودته عرج عـلى جزيرة مالطه، حيث اعدّ له فرسانها استقبالاً ملكيًا، فقضى في ضيافتهم وحفاوتهم ثلاثة ايام . ولما نزل مسينا وجد مندوباً ارسله الدوق ليرافقه برًا حتى پالرمو، حيث تعين ونقل معه اسرة الامير .

ولما انتقل الدوق المذكور الى نابولي اصطحب معه الامير واسرته وقدم له قصرًا فخماً مشرفاً على البحر .

وقد عثرنا بين الوثائق المديشية على كتاب حامل تاريخ ٢٧ اذار ١٦١٦، نرجح ان خاصكية زوجة الامير كتبته من پالرمو في اثناء تغيبه الى الغراندوقة . وهو بالايطالية، انما الامضاء بالعربية وهاك تعريبه :

« سيدتي صاحبة السمو غراندوقة تسكانا

« لا غاية من هذه السطور سوى تقديم آيات الاحترام لسموك وتقبيل يديك، راجية ان تعدّيني دائماً خادمة لك وبهـذه الصفة اخبرك ان سيدتي دوقة دسونا شاملتني بنظرها وغامرتني بانعامها .

« واسألك ان تبلغي سيداتي بناتـك احترامي وتقبليهن عني وعن اولادي الف قبلة . سائلة المولى تعالى ان يمنحك كل خير وعافية »

« عن پالرمو في ٢٧ اذار ١٦١٦ « خديمت لك فاخره وامها »

وفاخره على ما نرجح بنت الامير من زوجته خاصكيه[٣]

---

(١) عشرة قروش في اليوم . خ ٢٢٦

(٢) خ ٢٢٦ ـ ٢٣٦

(٣) ف ٢٧٩ ـ ٢٨٣

٣ ـ عودة الحاج كيوان ـ قال الخالدي « في غرة جمادى الثاني[١] دخل الى مدينة الشام چركس محمد باشا بكلربكيها . وفي الحال اطلق والدة حضرة الامير فخر الدين وارسلها الى ولدها الامير يونس . وكتب مكاتيب للامير فخر الدين ليرجع الى بلاده واهله واولاده . وتوجه بها الشيخ شهاب الدين بن عون والشيخ يوسف ابن المسلماني في مركب فرنساوي الى مدينة الكورنه من بلاد غران دوكا . وكان قبل وصولهم بعشرة ايام توجه الامير فخر الدين الى مسينا . . . فعاد معهما الحاج كيوان[٢] ».

وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٦١٥ كتب الحاج كيوان من ليڤورنو الى الغراندوق بالايطالية[٣] يشكر له ضيافته وعنايته به في اثناء اقامته في تسكانا . سائلاً المولى ان تسنح له الفرصة لخدمته . موكداً له « انه وابنه سيكونان عبدَين له ولولده مدى الحياة » . ووعده بان يسعى جهده في قضية الصلح بينه وبين الدولة العثمانية . ووقع الرسالة بالعربية « عبد بابكم الحاج كيوان » .

ولما وصل الى صيدا كتب ايضاً بالايطالية الى كل من الغراندوق والغراندوقة والدته والارشيدوقة زوجته والى كاتبي اسراره والى الامراء شاكراً لهم الطافهم . وارسل الى كل منهم قطعة قماش من الحرير الدمشقي، وزاد لكل من الغراندوق ووالدته جرة زيتون . واعتذر عن ارسال الحصان، الذي وعد به ولي العهد « خوفاً من القاء الشكوك في نفوس الكثيرين، الذين كانوا يراقبونه عند وصوله » .

وكان الصدر الاعظم محمد باشا يقضي الشتاء في حلب، استعداداً للزحف على بلاد العجم الثائرة . فقصد اليه الحاج كيوان وفاتحه في امر الصلح بين الدول العثمانية وتسكانا . فارتاح الى ذلك . فوجه الحاج كيوان كتاباً بهذا المعنى الى كميل جويدي[٤] كاتب اسرار الغراندوق، اليك نصه بالتركية :

---

(١) ١٠٢٤ اي ٢٨ حزيران ١٦١٥

(٢) خ ٤٢ و٤٣

(٣) بقلم اسحق عزيز اليهودي كاتبه

(٤) Camillo Guidi

سنيور قوالير قلو كيدي

عزتلو ومروتلو

حضرتلرينك عز حضورلرينه صد هزاران دعالر وثنالر ابلاغندن صكره معروض بندهٔ بيوجود وزرهٔ[١] خاك آلود بودر كه بعد ذلك غران دوقه حضرتلرينك وداعينه كلدوغمزده وسيزلر ايله دخي وداع لشدوغمزده اول زمان سيزلره ذكر ولنديكه[٢] غشباردن غران دوقه حضرتلرينه صلح واصلاح اولمق ايچون مكتوب كلديدي عزتلو وشفقتلو وعظمتلو پادشاه عالمپناه حضرتلري ايله صلح واصلاح ايچون بز دخي سيزلره ديكده بن اول جانبه توجه[٣] اولييورم اكر بر محلده دوشرسه عزتلو وسعادتلو وزير اعظم حضرتلرينه اكايمي[٤] سيز داخي بيورديكز كه جايز ومعقولدر حكمت رباني بز صيدايه واردغمزدن صكره عزتلو وسعادتلو وزير اعظم حضرتلرينك بر اغاسي صيدايه كلوب واصل اولدى بك حضرتلرينك سنجاقلري مقرر نامه‌سيله‌بر[٥] دخي اول محلده سيزلر ايله سويلدوغمر اسلوب اوزره اكدوغمزده واغا حضرتلري جايز ومعقولدر ديدي مكتوب يازوب كندولرينه ارسال ايله كز امدي اكر سيز كلورسكز امان الله وامان

---

(١) بدلاً من ذرّه
(٢) اولندى كه
(٣) بدلاً من متوجه
(٤) اكايم مي
(٥) بدلاً من بز

رسول كلسون ديو قول واقرار ايلديلر امدي اكر صلح واصلاح اولسون ديرسكز سيز كله سز فرانسيز ووندیك صلح واصلاحي كبي غران دوقه حضرتلري ايله سويلشوب كلهسز اكر كلمك مراد كز اولورسه سيزلر ايله صيداده وياخود شامده ملاقات اولورز وسيزلر ايله معاً وزير اعظم حضرتلرينك ركابنه يوز سورهرز امدي كلمك اولور قلبكزه بر خوف كلمسون والله وبالله سكا بر ضرر وزيان اولمق ايچون كفيلز وخاطركز خوش طوتهسز وبزى يلانجي چقارميهسز وبويله ايو وصادق القول [و]زير اعظم حضرتلري ايله[1] قول واقرار بزولماز شويله معلوم[كز] اوله باقى الدعا

المحب الودود
الحاج كيوان

وعلى الهامش :

وبويله حليم وقول صادق وزير اعظم كلمشدر اكر مراد كز وار ايسه بو فرصتي فوت ايتميهسز خصوصا بز شمدي حلبه وزير اعظم حضرتلرينك ركاب شريفلرينه روانه اولييورز وسيزك ايله نان وتمك[2] يمشز ونانُ تمك حقي واردر وسيز داخي كلدوككزده سيزلر ايله معا روانه اولمق مقرردر وبويله فرصتي فوت ايتميهسز [و]زير اكرم بويله حليم وقول صادق اله كيرمز ولا بويله وزير اعظم دنيايه كلمشدر شويله معلومكز اوله وسيز اعلم سز باقي الدعا

---

(١) لعلها اولنان
(٢) بدلاً من نان وانمك

وهاك تعريبه :

« حضرة الكاڤاليير كميل جويدي

« صاحب العزة والمروءة

« بعد تبليغ سعادتك الثناء مع مئات من الادعية يعرض عبدكم الحقير اني لما توجهت الى توديع سمو الغراندوق وتوديعك جاء ذكر كتاب ورد من جسبار بصدد الصلح مع الغراندوق . وكنا قد تحادثنا نحن ايضاً بامر هـذا الصلح بينه وبين صاحب العزة والعظمة السلطان، حامي العالمين، وقلت : اني قاصـد الى تلك الجهات فان سنحت الفرصة أأفاتح الصدر الاعظم بهذا الامر . فاجبتموني « جائز ومعقول » .

« وقد شاءت العناية الالهية ان يصل بعدنا الى صيدا اغا من قبل الصدر الاعظم بفرمان تولية علي بيك سنجقيتها[1] . فتكلمنا معه بامر الصلح بالشروط التي اتفقنا عليها . فاجاب هو ايضاً « جائز ومعقول . اكتب الرسالة وابعث بها الي » .

« فاذا شئت المجيء، فقد صرح انه يمكنك ذلك بامان الله ورسوله . اذا كان لكم رغبة في الصلح والاتفاق تعال، بعد ان تخابر سموه بالشروط، على مثال فرنسا والبندقة . فان جئتَ التقينا في صيدا ام في دمشق . وقصدنا من هناك الى مواجهة الصدر الاعظم . فالمجيء موافق . لا يخالج قلبك الخوف بتاتاً . واللهِ واللهِ انك لا تلقى شراً ولا ينالك ادنى اذى . ثق بكلامي ولا تظهرني كذاباً . لان القول الصادر من وزير عظيم مستقيم كالوزير الحالي لا رجوع فيه . اعلم ذلك . واكرر الدعاء .

الحاج كيوان

« صح . جاءنا وزير اعظم حليم وصـادق في قوله . ان شئت اياك ان تضيع الفرصة، لاسيما اننا سنقصد سوية الى ركاب حضرة الوزير الاعظم الشريفة في حلب . لا تدع هذه الفرصة تفوتك . انك لا تجد وزيراً اعظم اكثر منه حلماً وصدقاً في كلامه . لم يأتِ الى العالم وزير مثله . والباقي دعاء[2] » .

ونحن نميل الى الظن بان هذه المساعي وقفت عند هذا الحد، لان دولة تسكانا

---

(١) الامير علي بن فخر الدين، بدلاً من والده الغائب . خ ٤٣ وما يليها

(٢) ف ٢٨٣ - ٢٨٦

كانت، كما سبق القول، من اعضاء « الحلف الصغير » . فلم يكن يسعها ان تنفرد بالصلح مع الدولة العثمانية . والوثائق التي وقعنا عليها، الراجعة الى هذه البرهة، تنبئ عن المخاوف التي ساورت الباب العالي من التجاء الامير الى نائب ملك اسبانيا، وظهوره على احد غلايينه في ثغر صيدا، وعودته الى ايطاليا، مع علمه بصدور فرمان العفو عنه، والسماح له بالعود الى بلاده ومنصبه . « فاصدر الباب العالي اوامره الى الاسطول العثماني بالتبكير في الخروج والتوجه الى رودس وقبرس وسوريه، خوفاً من ان يكون النشاط الذي يبديه الدوق دسونا في التسلح موجهاً الى مهاجمة هذه المواقع » .

ولما عاد الامير نهائياً الى لبنان في آخر ايلول من السنة ١٦١٨ وحمل بعيد وصوله تلك الحملة الصادقة على ابن سيفا مجتاحاً طرابلس ولايته، وهادماً قصوره في عكار، ارتاب الباب العالي في هذه المغامرات الجريئة، وظن ان يداً اجنبية تدفع الامير اليها . لاسيما ان اسبانيا عززت اسطولها تلك السنة . فامر والي دمشق بالاستعداد للطوارئ وخفّت العمارة العثمانية بقيادة علي باشا الى جوب تلك البحار . ونزل القبطان في صور لزيارة قصر الامير، لما بلغه انه قد حوله الى قلعة . ثم استأنف السير حتى صيدا واستدعاه للحضور . فارسل الامير له النقود والهدايا والمؤن، وقائلاً يقول له : « ان جئتُ فمسكتني حنثتَ بعهدك، وان لم تمسكني جلبت عليك لوم الباب العالي » . فتركه الباشا وشأنه .

* * *

فانت ترى ان الامير، مع رسوخ كره الاتراك في قلبه، كان يلين معهم دون ان يتنازل عن شيء من حقوق وطنه، ويتلون امامهم، آخذاً منهم الحذر كله لنفسه ولبلاده، عالماً ان في التصلب التصدع إن لم يكن الانكسار، وان في المداراة النجاة، دون التهامل في الاحتياط .

في السنة ١٦١١، لما فقد بموت مراد باشا الوزير الاعظم صديقاً قديراً، واصطدم بنصوح باشا عدوه بادره بالهدايا وتسليف الاموال الاميرية . وارسل في الآن نفسه المطران جرجس بن مارون سفيراً الى الحبر الاعظم وغراندوق تسكانا ليحالفهما عليه . ولما داهمته الحملة العثمانية براً وبحراً، أبى اعلان العصيان، وانسلّ من وجه العاصفة حتى تفوت لاجئاً الى ايطاليا . بيد أنه حصّن قلاعه، وجهّز جيشه، وذخر له من المؤن

والرواتب ما يضمن ثباته ثلاث سنين . فصمدت القلاع والجنود في وجه الغزاة، ونجا هو بنفسه وذويه ونجت البلاد .

واخذ يحث الامراء المسيحيين على تجهيز حملة تعيده الى مملكته وتستعيد الاراضي المقدسة . ولما رآهم لاهين عنه بمنازعاتهم وان الغراندوق التسكاني وضع وحده قواته تحت تصرفه، ابى المجازفة بنفسه وببلاده وبمقدرات صديقه، واكتفى باعادة رجاله وبالتريث . وانتهز فرصة المنفى لدرس الانظمة الاوربية ليطبقها على بلاده، ومعالم الرقي والعمران، ليسعى وراءها لوطنه .

وبات ينتظر . ولم يفتر عن الاتصال بذويه ورعاياه وتشجيعهم على الصبر والثبات . حتى اذا همدت الرياح المعاكسة له بسقوط نصوح باشا عن الصدارة العظمى، وصحا له الجو وهبّ نحوه النسيم المنعش الآمال بقيام جمهرة من اصدقائه في الاستانة مكانه، اتصل بهم . فروّوا للسلطان ان « ابن معن، الرجل المستقيم، المستحق الرعاية، قد ذهب ضحية دسيسة كبيرة » . فنالوا له فرمان العفو والرجوع الى بلاده ومنصبه .

فعاد اليها، وقد عزز علاقاته بالامراء المسيحيين، واتفق معهم على تموينه بالاسلحة الحديثة، وتزويده بالخبراء في فروع الحرب والهندسة والزراعة والصناعة، وتصريف منتوجات بلاده . فافتتح للبنان عصره الذهبي، موحّداً قلوب بنيه المتنافرة، ضامّاً مقاطعاته المتفرقة، محصناً مواقعه، معززاً جيشه، موسعاً حدوده، مكثراً موارده . فخيّم الامن على ربوعه، واستتبت الراحة والطمأنينة في صدور ابنائه، وغصت موانئه بالمراكب التجارية، واساكله بالتجار والقناصل . ونال من العز والرخاء ما لم ينله قطر في الشرق في ذاك العهد المظلم .

ولننتقل الان الى تفصيل ذلك بمراجعة بقية الوثائق التي جمعناها

زغرتا في ٢٣ حزيران ١٩٣٨

الخوري بولس قرألي

CLOSED
AREA

DATE DUE

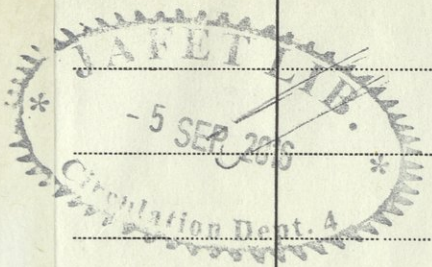

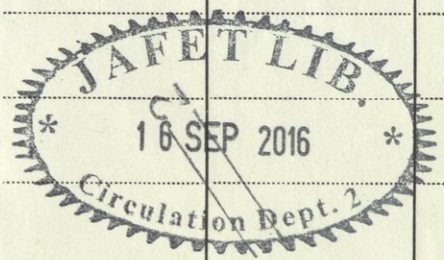

[redacted]
قرألى ،بولس (الخورى)
فخر الدين المعنى الثانى امير لبنان ادا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01067415

CL
A

A.U.B. LIBRARY

CLOSED AREA
[redacted] V.2
قرألي ، بولس .
... الدين المعني الثاني امير لبنان .
[redacted]

CLOSED
AREA

AUB Libraries